مجموعة قصصية

كرستال

عباس مدحت البياتي

كرستال

مجموعة قصصية

إهداء

أهدي هذه المجموعة الشيقة من القصص إلى أبني الغالي
وزوجتي العزيزة وللقراء

الكاتب: عباس مدحت البياتي

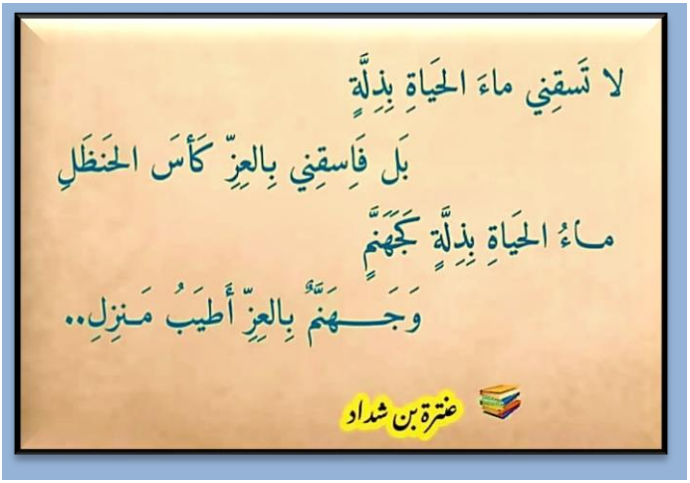
لا تَسقِني ماءَ الحَياةِ بِذِلَّةٍ
بَل فَاسقِني بِالعِزِّ كَأسَ الحَنظَلِ
مـاءُ الحَياةِ بِذِلَّةٍ كَجَهَنَّمٍ
وَجَـــهَنَّمٌ بِالعِزِّ أَطيَبُ مَـنزِلِ..
عنترة بن شداد

القصص

1- **مريم** ..... 5.
2- **كرستال**.....12
3- **العاشق والكلب**.....18
4- **الدنيء**.....25
5- **الفراشة**.....32
6- **الصورة**.....38
7- **فسيفساء العقد**.....45
8- **آخر المشوار**.....55
9- **زيارة صديق**.....62
10- **مكتب السفريات**....74
11- **القدر** ..... 95.
12- **الجوهرة**..... 98
13- **همسات شريط الإختبار**
14- **أمينة**
15- **الدكتورة بان**

مريم

جلستُ باكرًا، قرابة السادسة صباحًا، يغشى جسدي كدرٌ خفيف، وما زالت سماجة النوم تضطرب في رأسي. تناولت هاتفي أتصفح الرسائل المعتادة من أصحاب صلاة الفجر، وإذا بي أجد مجموعة رسائل من رقم غريب. فتحتها، وكانت كالآتي:.....

"أنا مريم، رفيقة علاء. الهجرة منحتني قرار رفض الإقامة، وأحتاج رقم المحامي الذي تراجعه، لأقدم طعنًا قبل نهاية الأسبوع."

فهمتُ أنها حصلت على رقمي من صديقنا المشترك علاء. بدوري، أرسلت لها رقم المحامي، وأثنيت على جديته وكفاءته، وذكرت أنه موصى به من قبل منظمات إنسانية. طلبت منها ألا تتأثر بقرار الرفض، فمثل هذا القرار بات شبه متفق عليه بين دول أوروبا ضد بعض الجنسيات، ومن ضمنهم العراقيون.

بعد ساعة وصلني منها ردٌ تشكر فيه مساعدتي. ثم اتصلت لتستفسر عن أتعاب المحامي، وسألت إن كان هناك محامٍ عربي، إذ تراه أفضل من وجهة نظرها. كان صوتها يخنس بارتباك وقلق واضح. شرعتُ أشرح لها، وقلت:

– يا مريم، هل تثقين بي؟

– أكيد، وإلا لما اتصلت بك. لكن صديقتي تقول إن المنظمات الإنسانية قد تساعدني دون أن أخسر أتعاب المحامي.

– لا تسمعي هذا وذاك. لا أحد يدافع عنك دون مقابل. المحامي بخبرته وعلاقاته يستطيع أن يصل لنتيجة ترضيك. تواجده المستمر في المحاكم واحتكاكه بالقضاة يولد علاقة صداقة ومصالح، قد تصل إلى تنازلات أو حتى رشوة. ثم إنه ألماني الجنسية، وهذا يمنحه حضورًا وتقديرًا يفوق المحامي العربي، لأنه ابن البلد، يعرف تفاصيل المحاكم الدقيقة. أما المحامي العربي، مهما كان كفوءًا، فهو في نظر الألمان غريب، والتعامل معه يبقى رسميًا، معزولًا عن المجتمع. أنتِ، هل تشعرين بتقدير الأجانب لك؟

– لا، أشعر بالنبذ والوحدة والغربة.

– هم كذلك ينظرون للمحامي العربي بنفس النظرة. صدقيني، لا ينفعك سوى المحامي الألماني. أتعابه لا تتعدى ألف يورو، تُدفع على أقساط، خمسين يورو شهريًا.

– كلامك مقنع، سأمضي معك، رغم أني مستغربة من قرار الرفض، فقضيتي محبوكة ولا تقبل الجدل.

– الرفض عام للعراقيين، لا تهتمي. لا أحد يجبرك على العودة إلا بتعويض يضمن لك التوازن داخل العراق، وهذه صيغة تفاهمت بها الحكومة العراقية مع ألمانيا.

في اليوم التالي، جاءت مريم برفقة علاء الذي أوصلنا بسيارته إلى مكتب المحامي، ثم غادر لانشغاله بعمله في محل الحلاقة. استقبلنا المحامي دون إطالة، وحدد موعدًا للمقابلة يوم الثلاثاء الساعة الثالثة عصرًا، وشرح لها أتعابه كما ذكرت سابقًا.

يوم المقابلة شهد يوم الثلاثاء وابلًا من المطر، بدأ منذ السادسة مساءً من اليوم السابق، واستمر حتى الثانية ظهرا من يوم الثلاثاء بذات الغزارة. السيول غسلت الشوارع، وجرفت الوديان، وضباب كثيف غطى الأفق. هدأت العاصفة بعد الثانية، وتحول المطر إلى رذاذٍ خفيف أنتهى مع وصولها بيتي. لتطلع الشمس كسفة تداري وجودنا.

مع توقف المطر، وصل الباص الذي يقل مريم من قرى كيمنتس إلى محطتها الأخيرة (Am HART WALD) وهو مكان سكناي. طلبت من ابني أن يستقبلها ويعود بها إلى البيت لنجهز أنفسنا للذهاب إلى مكتب المحامي، الذي لا يبعد سوى أربع محطات باص عن السكن.

حضرت مريم والتي تبدو جوهر في أناقتها ورقتها، فتاة عشرينية، تهجس بشرتها مغشية بسمرة غنجة من ملح الشرق، ومن رغاء تاريخ سومر وأكد. في ملامحها سحرٌ شفيف من لدانة البداوة، ونظرات تخفي في جوفها أسرار جنوحها، دون أن تدرك أن تلك الأسرار مفضوحة للمقابل. لطيب قلبها، وحسن أدبها، وفيض تعليمها، فهي تملك شهادة بكالوريوس في الفيزياء، لها جاذبية آسرة. ملامح وجهها

تغـص بـالفتن، كـأوراق شـجر الخريـف، وعيناهـا الواسـعتان كعيـون المهـا، وأنفهـا شـامخ بهيبـة مغشـية بالخجـل. تفـرش وجههـا ابتسـامة شـفافة، تلـوي بهـا أذرع المـارقين، وتبجـل ملامحهـا بإطـار مـن شـعرٍ عكـرٍ مغشـى بصـبغة النـار، يضـفي على قوامها ألقًا وجاذبية غضة.

حضـرت إلـى البيـت بروحهـا العراقيـة الترفـة، متحليـةً ببسـاطةٍ هـي سـمة العـراقيين أينمـا حلّـوا. تغـدينا علـى عجالـة ممـا أفـاض الله علينـا، نسـرق الوقـت قبـل أن يسـرقنا. كـان الحـزن يوشـح ملامـح وجههـا، حـزنٌ شـفيفٌ مـن طـلاقٍ أنهكهـا، ومـن قـرارٍ مجحـفٍ صـدر بحقهـا مـن دائـرة الهجـرة. لـم يكـن لـدينا متسـع مـن الوقـت لنغـوص فـي تفاصـيل القـرار أو عقـد الحيـاة، فمـا إن أنهينـا غـداءنا حتـى انطلقنـا مسـرعين إلـى مكتـب المحـامي، مرتـدين ملابسنا المطرية اتقاءً لغثاثة الطقس وجلَد المطر.

خـلال تواجـدها القصـير فـي البيـت، وفـي طريقنـا إلـى المحـامي، دار بيننا الحديث التالي:

– أين تسكنين يا مريم؟

– فـي قريـة تبعـد قرابـة سـاعة بالبـاص عـن مدينـة كيمنـتس، أنـا وابنتـي زينـب، عمرهـا أربـع سـنوات. وفّـرت لنـا دائـرة الهجـرة بيتًا صغيرًا.

– وأين زوجك؟

– تطلقت منه. كان لا يكترث بمشاكل الحياة، سلوكه أودى بنا إلى فسحة الطلاق.

– إن كانت لكِ نية الارتباط، فزوجك أولى بك. لن تجدي من يُعنيكِ وابنتك مثلما يفعل هو، فهو أبوها.

– الأمور تعقدت بيننا، نمضي في خطين متعاكسين. لا أفكر بالزواج، أودّ إكمال دراستي.

– كيف تعرفتِ على علاء؟

– في الكنيسة.

الكنيسة؟ علاء صديقي، من كربلاء، متزمت بعقيدته، يحضر إلى بيتي كل أسبوع.

- ماذا يفعل في الكنيسة؟

– ربما يبحث عن ذاته.

– وماذا تفعلين أنتِ هناك؟

– أترنم بترانيم الأحد، أغني.

– أأنتِ مسيحية؟

– لا أعترف بالديانات، لا فرق عندي بين الإسلام والمسيحية.

– إن كان لكِ صوت جميل، لماذا لم تصبحي مطربة؟

– كان ودي ذلك، لكن الخجل منعني. لا أجرؤ على إطلاق صوتي أمام حشد من الناس.

عندها وصلنا إلى مكتب المحامي، وما إن دخلنا حتى طلب قرار دائرة الهجرة للاطلاع عليه. قرأه، ثم قال:

– مبروك، قرارك إيجابي. الهجرة منحتك إقامة ثلاث سنوات وجواز سفر ألماني. لا قضية لديك لتدافعي عنها.

– ماذا تقول؟ إقامة؟! الجميع قالوا إنه قرار رفض وترحيل.
– لم يفهموا المضمون. القرار إيجابي لأنك دخلت ألمانيا عن طريق البر. مبروك الإقامة.

اشرت لها دفع خمسين يورو مقابل الساعة المخصصة، وبشارته بالإقامة. خرجنا من المكتب والفرحة لا تسعها، وهي تقول:

– كنت واثقة من قضيتي، كيف خدعوني؟ ثلاثة أشخاص قرأوا القرار وأقروا بأنه رفض وترحيل. تبين أنهم لا يفقهون شيئًا من اللغة الألمانية.

– ألف مبروك يا مريم، الخير فيما اختاره الله.

الوجه الآخر للحكاية - هي ربحت الإقامة، لكنها في نظري خسرت نفسها أمام الله. لم تحصل على الإقامة إلا بتزكية الكنيسة، بعد أن صبأت وتنصرت. حين أكدت لي أن قضيتها "محبوكة 100%"، فهمت لغزها. هكذا يُحارب المسلمون بالخبث، يُسندون من يغيّر دينه ويصبأ.

قال الله تعالى:

{وَلَـنْ تَرْضَـى عَنـكَ الْيَهُـودُ وَلَا النَّصَـارَى حَتَّـى تَتَّبِـعَ مِلَّـتَهُمْ} {وَمَـن يَبْتَـغِ غَيْـرَ الإِسْـلَامِ دِينًـا فَلَـنْ يُقْبَـلَ مِنْـهُ وَهُـوَ فِـي الآخِـرَةِ مِـنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران: 85]

كريستال

همس لها همسة هائمٍ مجنون، شغل فكرها، ورقّت لملاحته. أرسل هاجسها دفقة من شواظ النار، فتأججت فتائلها رقةً وعذوبةً وألقًا. بتلك الهمسات أنهى جدل شوقه وعاطفته، كمن سقاها كأس نبيذ من نار وجده، فأخلّ بميزان هدوئها، فذابت بين عينيه كالسكرة المغشية في مذهب الكأس.

كان قد استهام بها، وقد استهامت به. سكر من طيب شذاها، وسكرت من شهد رجولته. تهاوى في حسن غواها، وتهاوت في صبّ وجده. أضحى كمن يضبح في جريه خلف جريد حبها، وأضحت كمن تتنفس هباب النار من فرط الشوق والوله.

لم يصبر على عصف فتنتها وصمتها، فاعترف لها بإعجابه، فقابلت اعترافه باعترافٍ وإعجابٍ ومقبولية. اتفقا على أن يمضيا معًا حياةً صادقةً على صراطٍ مستقيم، لملما وشائج الغرام المتناثرة، تلك المنبثّة من لدانة الرغبة وسُنن الأهواء وخترفة الأحلام. جنحت الأنفس إلى واحة العشق، لصياغة إقرارٍ أبديٍّ للفتنة الجياشة في الروح والبدن، بعقدِ القِران، لتزفّ الأفئدة الملتاعة بعضها لبعض على ملتقى الصمت وألق المودة.

لم يطل زمن نضجه وإعجابه بها، فتقدّم لخطبتها. التقيا على سرير المحبة برغبةٍ جامحةٍ من الطرفين، وبمباركة الأهل، ليزيّنا بألق الشباب قفصهما الذهبي. أصبحت له كقوقعة

صدفية تصون لؤلؤة عشرتِه، وجعلته من حاجاتها الثمينة، التزمت بتعاليمه، حافظت على كيانه، وجمّلت صورته بين أصدقائه. صار لها دفترًا وقلمًا، سطّرت عليه رغباتها وسعادتها وأهواءها وملاذها ولونها.

اندمجت خلاياهما وتداخلت وشائجهما، وتوارت الفروقات في أنزيمات المحبة، حتى غدت علاقتهما في عيون الآخرين ككريستال يلمع تحت ضياء الشمس. صارت نموذجًا يُحتذى به لشدة الألفة والتفاهم والرقي.

استمرت تلك الحالة حتى حلول ضيفهما الأول، حين أنجبت له صبيًا يشبهه. ومنذ لحظة ولادته، تعلّق الأب بابنه تعلق الروح بالجسد، وكأن الطفل قد سرق عواطف أبيه من حضن أمه.

وبسبب شدة تعلقه به، رفض أن يتربى الطفل على أيدي الخدم، فطلب منها أن تستقيل من وظيفتها لتتفرغ لرعايته. شرح لها جنوحه وجنونه في حب طفله، وبيّن لها حجم خوفه عليه من الإهمال، لعدم ثقته بإدارة الخدم. وبصفته ربّ البيت، أعلن تحمّله لمسؤولياتهم.

لكنها لم تنثنِ لطلبه، ولم تنحنِ لرغبته. فقد وجدت في وظيفتها شخصيتها، ورأت فيها طاقة إيجابية تقتل دودة الفراغ وتكسر نمط الروتين. كانت متنفسًا حقيقيًا تتجاوز به منغصات الحياة، ومتعةً في إلقاء الدروس، واللقاء بزميلات العمل، ومعرفة تقلبات الحياة. وجدت فيها سعادة مرجوة، وحيوية دائمة، وطاقة تحثها على النشاط والعمل وتنعيم الحياة.

فالإنسان بطبيعته يحتاج إلى متنفس يشغل به خلايا عقله. الجلوس في البيت يعني تجميد الفكر والذاكرة، والانشغال بأمور تافهة، ويؤدي إلى السخط والهم والعقد والروتين. حين يحتك الإنسان بالمجتمع، يستلهم منه سعادة تنسيه هموم الدنيا، وتتجدد أفكاره، ويلتمس اختلاف الثقافات، ويشعر بالاعتداد بالنفس وصفاء الذهن، إضافة إلى التكامل المادي والمعنوي والفكري الذي يحتاجه لديمومة الحياة.

العمل يجلي متاعب النفس ويعالج أمراض البدن، تلك التي تتعفن وترهق الذات مع مرور الزمن كبكتيريا العفن. فالإنسان يولد بالفطرة بلا هوية، حتى يجد له متنفسًا لتكوينها. والعمل بالنسبة لها هوية ترفع من قيمتها في المجتمع، وتشعرها بذاتها وهي تشارك الآخرين. كما أن العمل يجنّب الإنسان الامتعاض وأمراض العصر، لذا تجد العمال أكثر صحة بدنيًا ونفسيًا من الموظفين الذين يعملون خلف الكراسي.

الفرد لا يمكن أن يجتر ذاته عن المجتمع طالما يعيش ضمن أطره. وعجلة العمر لا بد لها من أن تستمر، وفي نهاية المطاف، تستقر بخلاصة تجاربه واحتكاكه بمحيطه.

كان جميل يشعر بامتعاض من عناد زوجته بثينة، فقد رأى في سلوكها أنانيةً تمس حياة وليده، حسب تقديره الشخصي. هجس في عنادها تطرفًا وإخلالًا بالمسؤولية، وربما أصابها اضطراب نفسي ناتج عن التغيرات الفسيولوجية والفكرية والبدنية التي رافقت تجربة الإنجاب. وربما غلبت كرامتها عاطفتها تجاه ابنها.

فـي المقابـل، هجسـت بثينـة بـأن الطفـل قـد سـرق منهـا اهتمـام زوجهـا، رغـم أنـه فلـذة كبـدها. شـعرت بتغيـر طباعهـا بعـد الـولادة، ورأت فـي الطفـل سـارقًا لوقتهـا الثمـين واهتمامهـا بـذاتها، دون أن يعوّضـها زوجهـا عـن تلـك الخسـارة، أو يـدرك مـا تعانيـه مـن عقـدة الإنجـاب. اسـتعانت بالخـدم لتخفيـف وطـأة المشـقة، ورفضـت التخلـي عـن وظيفتهـا التـي وجـدت فيهـا متنفسًـا لهويتها واستقلالها.

عنـدها بـدأت خيـوط العقدة تلتـف حـول عنـق العلاقـة بينهمـا، وبـدأ الفتـور يفصـل بـين نـارين، حتـى ذابـت الطرفـة والكلمـة الطيبـة علـى جمـرة العنـاد، وغـارت البسـمة وسـط جمـود المشـاعر. يومًـا بعـد يـوم، زاد الـورس فـي الوجـوه المتجهمـة، وتكـورت العقـد، ومالـت النفـوس نحـو التحـدي وعـزة الـنفس، وكـلٌّ يبحـث عـن نصرٍ على حساب الآخر.

لـم تسـتجب لرغبتـه، ولـم يتنـازل عـن طلبـه، فارتفعـت وتيـرة العنـاد، وهفـت المحبـة فـي تيـارات التصـلب. بقيـت الحالـة الشـاذة سـارية، حتـى وصـلت الألفـة إلـى مرحلـة التفتـت والتمـزق، وتحـول الخصـام إلـى رغبـة فـي الانفصـام. طرقـت أبـواب المحـاكم. هجـس كـل منهمـا بـأن الحلـول باتـت عقيمـة، تفتقـر إلـى الإرادة والقـرار والتفـاهم. فراحـا يبحثـان عـن حـل جـذري عبـر الطلاق.

اسـتمرت الحالـة المستعصـية عـدة أشـهر، بـين جـذب وشـد، حتـى وجـد القاضـي هـوة شاسـعة تفصـل بـين فكريهمـا، دون أن يحكـم

بـالطلاق. لكنـه لمـح فـي العقدة فسـحة أمـل ضـئيلة قـد تعيـد الميـاه إلى مجاريها، رغم سيل العناد والجفاء.

أيقـظ ضـميره، فلـم يواكـب تطلعاتهمـا بقطـع صـلة الـرحم. لمـس الـتلاحم العـاطفي بينهمـا، ووجـد صـعوبة فـي البـتّ بـأمر الطـلاق لأسباب غير مقنعة. فأخذ يؤجل القرار شهرًا بعد شهر.

فــي المقابــل، زاد التــذمر والتنمــر بــين الــزوجين، حتــى تحولــت حالــة الانفصــال إلــى صــيغة قبــول، واخــتلط ســواد الظــن ببيــاض النية، وطغت الرمادية على المشهد العام.

فــي الجلســة الأخيــرة، كــان لا بــد للقاضــي أن ينهــي هــذا الجــدل بعـد سلسـلة مـن التـأجيلات. وقبـل أن ينطـق بـالحكم، طلـب مـن كــلٍّ منهمــا كتابــة خمــس خصــال فــي الطــرف الآخــر علــى قصاصـــة ورقيـــة، واحـــتفظ بهـــا بســـرية. بعـــد أن دوّن جميـــل خصــال بثينــة، ودوّنــت بثينــة خصــال جميـل، طلـب منهمـا تبـادل القصاصات وقراءتها بصمت.

حينهـــا، شـــرعا يقـــرآن الخصـــال ويختلســـان النظـــر لبعضـــهما الــبعض، وعلــى وجهيهمــا تفتــرش ابتســامة شــفيفة، تــارة بخجــل ونـــدم، وتـــارة بشـــوق وحســـرة. قـــرأ القاضـــي هواجســـهما فـــي صمت.

غـادر القاضـي غرفـة التحقيـق لخمـس دقـائق، وحـين عـاد، راقـب تغيـرات الحالــة الطارئــة بــين الــزوجين، فوجــدهما غــارقين فــي وشوشــة آنيــة، يبتســمان لبعضــهما الــبعض. عنــدها اقتــرح علــى

جميل أن يعزم زوجته في مطعم قبل تقرير المصير، على أن يعودا بعد يومين لتثبيت أمر الطلاق.

لكن الزوجين شكرا القاضي على حسن تصرفه وبعد نظره، وقالا له:

"شكرًا لك، لن نحتاج قرارك... سنحل مشاكلنا بأنفسنا. لقد قررنا الاحتفاظ ببلورة الكريستال."

تأبطت الزوجة ذراع زوجها وهما خارجان من القاعة، فيما بقي القاضي يتجول بين القصاصات التي بقيت سرًّا من أسرار الزوجين. لقد حافظ على الكريستال من عبث الزمن، لأنه وجد فيه لمعةً تبهج العين.

العاشق و الكلب

وسط امتدادٍ شاسع من الصحراء، حيث يغلب على الأفق لون واحد لا يتغير وهو لون الرمال، عاش أمير شهورًا ستة كأنها دهرٌ من العزلة والأنكماش. وحدة المشاة المرابطة في قلب صحراء الأنبار لم تكن سوى محطة يعبر منها الجنود نحو قسوة لا ملامح لها. قرفت نفس أمير من مواجهة الروتين وهالة الضغوطات النفسية التي تعرض لها من قبل ظرف الوطن السائد، وسخط الطقس، والحالة القسرية وخاصة أنه كان قد تزوج بفتاة أحلامه قبل أن يساق لوحدته بشهرين.

تكالبت عليه المواجع حتى وشل صبره، حتى أضحت الظروف القسرية المفروضة عليه حاجزا منيعا بينه وبين حبيبته طوال تلك الفترة الحرجة من حياة الإنسان. كان أمير، ابن البصرة، قد احتمل كل شيء لأجل إسعاد زوجته: الأوامر الصارمة، سوء الطقس، العيش في ظل أمانٍ شبه معدوم. تلك الظروف أولدت ضيقا وقرفا في صدر أمير، في ظل انقطاع دائم للتيار الكهربائي، بسبب خلل في المنظومة الكهربائية. لكنه لم يكن مهيأً للفراق والفراغ الذي ينهش روحه ببطء قاتل.

الحرارة كانت تبسط نفوذها على المحيط كله، الرمال التي تملأ الأفق لم تكن سوى صهريج ملتهب، جمرٍ خفي يتحرق تحت الأقدام، تُطلق أبخرةً تخنق الأنفاس. فأينما يبصر يجد سرابا عائما في البقاع.. تلك الظواهر الطبيعية أغشته، زادت من جدلية الحالة المرة في فكره. العواصف تكاد لا تبطل

غثاثتها، لا يستهويها سوى الحركة العشوائية، تكاد تكون شبه دائميه خلال فترة الصيف تتحرك بعد التاسعة صباحا ولا تهدأ حتى الثالثة عصرا، تشتط أجنحتها فتثير الغبرة في آفق السماء مع ارتفاع الحرارة لتقطع دابر الرؤيا والتنفس، وكأنَّ الأرض نفسها ترفض أن تحتمل ثقل البشر، تدفعهم نحو الجنون، تضعهم أمام الحقيقة المطلقة: لا مكان هنا إلا للأقوى، ولا نجاة إلا لمن استطاع أن يغلق مجسات فكره وعقله وقلبه.

وفي ليلةٍ من ليالي الإرهاق الطويلة، حين كُلّف أمير بحراسة بوابة الوحدة، تقدم منه كلب، كأنه ربيب الوحدة. بدى كأنه أنهكه الجوع. في لحظة صمتٍ متبادلة رحب أمير به، بدا وكأن هذا الحيوان قد فهم ما يعانيه الجندي فجاء يساعده في عملية المراقبة، كما لو أن الألم قد أصبح لغةً مشتركة بينهما.

حال الكلب لا يختلف عن حال الجندي أمير إلا في الهيئة، الاثنان جمعهما الظرف والمكان لذات الهدف والغرض. الكلب لم يجد مأوى ومطعم أفضل من الوحدة، فصار يرنوا إلى الوحدة العسكرية ليملأ بطنه بما يجود به المعسكر؛ مقابل أن يعينهم على مبدأ الحراسة ليلا.. فيما أمير هو كذلك لم يجد ملجأ حنان يأويه ويعينه على الحياة سوى أن ينتمي للمؤسسة العسكرية، ليعيل نفسه وزوجته على كف شبح الفاقة.

اقترب الكلب بحذر، فمدَّ أمير يده ببقايا طعامٍ وماءٍ كان قد احتفظ بهما، وكأنها طقوسٌ بين اثنين لا يجمعهما سوى الصراع من أجل البقاء. تحدث أمير إليه كما لو كان صديقًا أو

كائنًا قادرًا على الفهم والإصغاء، وكان الرد يأتي دائمًا بتلك الهمهمة الخافتة.

- كيف حالك، يا صديقي؟ ربما أنت أفضل مني.
- أم... جاء الرد خافتًا، كأنما وافقه على معاناته.
- أنت حر، لا تأتمر بأوامر ذلك الضابط المتعجرف.
- أم.
- أنت لست مجبرًا على البقاء في هذه البقعة النائية الجرداء، يمكنك الرحيل متى شئت.
- أم...
- لكنك بقيت هنا رغم كل شيء. هل أنت غبيٌ لهذا الحد؟ أم أنك أشد وفاءً مما ينبغي؟
- أم...

أمير تنهد بعمق، مدَّ بصره نحو الأفق البعيد، حيث الريح تجرّ ذرات الرمل معها كأشباح تتحرك أمامه ترهبه، كأنها دعوةٌ للهرب. ذلك الشعور الذي رافقه طيلة الأشهر الماضية بدأ يأخذ شكلاً أوضح من هالة الرعب؛ لم يهجس بهذا المكان سوى قبرٍ مفتوحٍ ينتظر أن يبتلع صاحبه في لحظة غفلة. لم يكن أمير لوحده في هذا المأزق، بل كان برفقة كائنٍ آخر قرر أن يبقى وفيا للمعسكر بلا تبريرات عقيمة.

الظلمة سائدة وتلك الكثبان المتحركة بدت له في محيطه أشبه بأوكار شياطين تبث الرعب في قلبه، صفير الريح بدا كانه نداءٍ آتٍ من بعيد يدعوه للقاء، ربما ينطلق من داخله، أو من بوتقة اشتياق زوجته. هناك وسط تلك العتمة ظهر في الأفق

طيف زوجته أمامه ينحدر من النجوم، وهي تمد يداها نحوه، تناجيه من خلف الهواجس المكهربة. عندها أدرك أن القرار الوحيد القادر على إنقاذه هو الهروب مع صوت الريح. لم يعد التفكير يعينه على تحدي الظرف، ولم تعد المقاومة حلًا لمعضلاته. وكأنه سمع نداء حبيبته متوشحٍ بصفير الريح؛ لذا قرر أن يجاري خياله ويدخل نفق الهيام وسط هباب الريح، علّه يعثر على حبيبته خلف ستار الهواجس المكهربة..

ترك سلاحه خلفة بمعية الكلب وصار يتبع الريح وعينه تتمعن في المجهول العميق بحثا عن وجه حبيبته، تبع الهاجس المجهول، فيما بقي الكلب يحرس موقعه، يرعاه بضميره، كما لو كان شاهدًا على لحظة استسلام لا تُنسى، راعيا أمير وبما حاق به من سقم ومرار.

أستمر أمير في مغازلة فكره ومراعاة سره، متدحرجا مع الريح وعين الكلب تتبع أثره، حتى غص في ضباب العتمة حين أدرك حدود الشارع العام، لتقلله من هناك عجلة عابرة لمركز مدينة حديثة..

الدنيء

استفاق من غفوته وقرر أن يبدأ تغيير منهج حياته، أن يُحسن من ظرف معيشته، أن يرتقي بحاله لمصاف المقبولية مما يعانيه من سوء تدبير وفاقة.. لذا أخذ ميثم بمشورة والده وقرر الهجرة خارج العراق، إيذانا بتفاقم سوء الأوضاع وانحدار المستوى المعيشي العام وضعف فرص العمل والأمان بعد احتلال العراق. كما رنا الى الآية الكريمة " هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فأمشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور" صدق الله العظيم.

قرر الهجرة سنة 2010 ، خلال الرحلة الميمونة من بغداد إلى تركيا؛ كان قد تعرف على شاب في الطريق أسمه حسن، أبن العشرين عاما، كرفيق له في الطريق. كان قد أحسن إليه بحمل أحدى حقيبتيه خلال مشواره. حسن هذا له دراية جيدة بإسطنبول كونه مقيم بها، يسكن منفردا في شقة صغيرة تقع في شارع فاتيح – الشقة عبارة عن استديو (غرفة متوسطة الحجم فيها سريرين زائدا حمام ومطبخ) قريبة عن مكان عمله.

بعد الاندماج في الطريق واستبيان الظروف المتشابهة التي دفعت بهما إلى الهجرة، ألح حسن على ميثم بالسكن معه في شقته حتى تستقر أموره ومن ثم يقرر مصير هجرته للجهة التي يبتغيها....

فـي إصـراره وملحتـه؛ الـتمس ميـثم طيبتـه وحسـن سـلوكه، كمـا وجـد فرصـة سـانحة أمامـه للتعـرف علـى معلـم مدينـة اسـطنبول وسـبل الهجـرة منهـا لأروبـا. حينهـا لانَ لطلبـه، كونـه بحاجـة ماسـة لمرشـد يعينـه فـي اسـطنبول لتجـاوز الفتـرة الحرجـة مـن رحلتـه، يمكـن أن يسـتعين بـه، ويحـافظ علـى مـا فـي جيبـه مـن امـوال للغـد الآتـي، كمـا سـيتعرف علـى أسـرار ومنافـذ طـرق الهجرة.

شـارع فـاتيح شـارع تجـاري مـتخم بالكماليـات والألبسـة الجـاهزة، لـذا دائمـا مـا تجـده مزدحمـا بالمـارة، كمـا أنـه شـارعا حيويـا يقـع فـي منطقـة حيويـة مـن إسـطنبول تكتظ بالسكان وباعـة الجملـة والمفـرد ومحـلات الأجهـزة الكهربائيـة، طـول الشـارع بحدود كيلومترين، ايضا تتخلله مطاعم راقية.

خـلال مرحلـة السـفر كانـت قـد أرتفـت الحالـة النفسـية بـين الأثنـين إلـى درجـة الألفـة، بحيـث أزيحـت العقـد وأذيـب الاسـتحياء والغرابـة بينهمـا بعـد أن التحمـت الوشـائج حـد الانصـهار. لتقـارب الميـول بينهمـا، كانـت قـد رفعـت درجـة التكلـف باندماج فكـر كـلٍ منهمـا بفكـر الآخـر، كـأنَّ كـل منهمـا علـى صـلة بـالآخر منـذ أمـد بعيـد. علـى الأقـل كـان ذلـك مـن وجهـة نظـر ميـثم الـذي كـان يكبـر حسـن بعشـرة سـنوات تقريبـا. كـان حسـن قـد الـح عليـه أن يسكن مؤقتا معه في الشقة لغاية أن يخرج من اسطنبول.

مـا أن دخـلا الشـقة؛ حتـى هجـس ميـثم بحاجتـه الماسـة للاسـتحمام لمـا كـان يشـعر بـه مـن حـرارة فـي الجسـد، ود نـزع كـدر الرحلـة وغـل السـفر وإرهاقـه، كـان حسـن قـد هادنـه خـلال رحلتـه بحمـل

أحدى حقائبه- لذا وجد ميثم طمأنينة منه، حين خلع ملابسه تركها على أحد الأسرة، كما ترك محفظته وعلبة سجائره فوق طاولة صغيرة تتوسط السريين ثم دخل إلى الحمام ليستحم.

ما أن فتح دوش الحمام على رأسه؛ حتى سمع طرقا على الباب بملحة من حسن، يطلب منه تسليمه ملابسه الداخلية المتسخة ليغسلها، قال له بملحة عجيبة وبترجي!!:...

- يا ميثم أعطني ملابسك أغسلها!!!
- لا مستحيل، هذا غير ممكن..
- لا تكن جلفا، أنا اخوك الصغير، ثم أنا لا اغسلها بيدي، أنها الة الغسالة التي تغسل الملابس.
- يا أخي انا لا أدع أختي تغسل ملابسي، وبالذات الداخلية منها، فكيف أسمح لنفسي بأن تغسلها أنت بذاتك؟
- قلت لك لا تضع العراقيل والعقد بيننا، خذ المسألة ببساطة، أنا مجرد وسيط أضعها داخل الغسالة لتغسل وتنشف بسرعة، دعنا نكسب الوقت لا أكثر، ثم أنك كنت قد خدمتني كثيرا خلال الطريق، وحملت عني أوجار السفر، وأريد أن أعيضك عن ذلك.

بسبب الحاحه المتزايد، ووقوفه بباب الحمام مصرا على رأيه؛ أرتخى ميثم لطلبه مسلما إياه ملابسه الداخلية ليغسلها.

وبعد استحمامه؛ أخذ قسطا من الراحة، ثم قرر أن يعزم رفيقه حسن في مطعم قريب من الشقة، ليملئا بطونهما بأكلة تنسيهما

جعجعتها الخاوية وعناء الرحلة.. ارتأت هواجسهما بأن يذهبا لمطعم يعني بالأكلات العربية، وأن يأكلا مما تشتهيه النفس، مضت الأمور بسلاسة حتى امتلأت بطونهما مما جاد به الله...

بعد الانتهاء من وجبتيهما؛ تنافسا الأثنان على دفع فاتورة الأكل المقدرة بـ 15 دولار تقريبا..... وما أن فتح ميثم محفظته كي يدفع فاتورة الحساب حتى لسعته المفاجأة، ما أن دقق في محفظته حتى أرتجتْ ذاته على حين غفلة.... لقد وجد المحفظة تصفر، خاوية، خالية من النقود!... حينها استشاطتْ أوداجه غضبا، صار أشبه بالسمكة المزهرة لا يرطن إلى سكون، مشتت الفكر، مضطربا، تائها في سلوكه وتركين ذاته.

أنتبه عليه حسن وهو يتقلب بين يديه مصفر الوجه... حينها سأله بخبث وارتياب..

- ما بك يا اخي؟

لم ينبس بشفة، لم يستطع أن يذكر له الحقيقة، غص في غيضه، كتم همه في وحل خجله، لا يستطيع اتهامه جهرة بسرقته، بات يشك بأمر نفسه. صار يتمتم مع نفسه دون أن يفقه من تمتمته شيئا، معرضا وجهه إلى الجانب الآخر، قائلا له بجفاء:...

- لا شيء، كأني قد أضعت نقودي أو صرفتها.

فـي إجابتـه؛ كأنـه أرسـل لـه رسـالة، أوضـح فيهـا معرفتـه بمـا حصل.

ببجاحة وغلظ قال له حسن:...

- لا يهمك يا أخي؛ أنا سأدفع عنك فاتورة الطعام.

صار ميثم يسال نفسه ويجيب:...

هـل مـن المعقـول أنـي أضـعت 250 دولار فـي الطريـق.. لا وألـف لا، أن ضـاع شـيء مـن المحفظـة لضـاعت المحفظـة كلهـا.. أيـن ذهبـت فلوسـي أذا؟ تـرى هـل ذهبـت ضـريبة ثقتـي بـه، أم ضـريبة الأمـان الـذي منحنـي إيـاه؟ أم ضـريبة غسـله ملابسـي الداخلية؟..هههههههههه...

أصـحى يـا نـائم، لا تثـق بكـائن وأن كـان مـن صـلبك، وبالـذات فـي هـذا الـزمن الكفيـف. تـرى؛ لـو عـرف مقـدار مـا أحمـل والمـدفون فـي جيـب سـترتي السـري؛ لجردنـي مـن كـل مـا أملـك، أنهـا إشـارة من الله أن أتمسك بالحذر.

مـن جانبـه حسـن كـان قـد فكـر فـي فرصـة سـرقة ميـثم منـذ الوهلـة الأولـى التـي تعـرف بهـا عليـه، وقـد خطـرت فـي ذهنـه فكـرة اسـتغلال الفرصـة، كونـه أضـحى ككـبش الفـداء بـين يديـه، أنـه غشـيم وطيـب القلـب، والفرصـة مواتيـة فـي اسـتغلاله وصـيده، كونه أول مرة يغادر العراق.

بمـا أنـه فـي ذاتـه نيـة الهجـرة، إذا لابـد مـن أنـه يحمـل معـه مبلغـا دسـما مـن المـال. لـذا الـح عليـه علـى أن يسـكن معـه فـي شـقته

ليقترب من هاجس الفرصة أكثر، وليسهل عليه سرقته ومباغتته.

ترى إلى أين ذهبا بنفسياتهما؟ هذا ذهب لنفسه وبراءتها، وذاك ذهب لذاته وتربيته وعينه الجانحة. هذا تمسك بالقرار والفرار وذاك تبع المكر والإقرار، فالتمس في سره السحن والعذاب النفسي والمرار. فمهما أزفت وتولت النفس؛ فلن تفلح في سعييها تلك النفس الأمارة بالسوء لابد أن تُدْكر وأن ظفرت بغنيمة ما، حتما ستلاقي الويل والمرار.

لقد تمكن حسن من سلت المبلغ من المحفظة بعد أن خاب ظنه في إيجاد المبلغ المخبأ، بعد ذلك حاول التمويه في سلوكه بغسله ملابسه الداخلية، ولكن بدل أن يخفي شنعته الخبيثة بوشاح الطيبة التي أبداها تجاهه في سلوكه، كان قد عرى ذاته بالخسة والنذالة. لقد أوقع ذاته في شرك مصيدة الرحمن التي لا ترحم....

حينها ختم ميثم على نبذ صداقة حسن بالشمع الأحمر، ليتجنب امثاله الذين كثروا في بلاد الغربة، هؤلاء الذين يعيشون على أكتاف البسطاء كالبكتريا العفنة.

تَغَيَّرَتِ المَوَدَّةُ وَالإخاءُ--- وَقَلَّ الصِدقُ وَاِنقَطَعَ الرَجاءُ

وأَسلَمَني الزَمانُ إلى صَديقٍ--- كَثيرِ الغَدرِ لَيسَ لَهُ رَعاءُ

الامام علي رضي الله عنه

الفراشة

ما إن لمحتها في ممر البناية التي نسكن بها، حتى تسللت إلى حشاشة الفؤاد كقطعة حلوى، بسلاستها وعفويتها، راقت لمزاجي، واستحقت الثناء والإطراء. تهجس بها كفراشة تتنقل بخفة بين زوايا المكان، لا يروق لها مقام ثابت، تدور حول ذاتها أحيانًا، ترسم ببراءتها شكل زهرة نرجسية، بثيابها البيضاء وقلنسوتها الزرقاء، وكأنها تدرك حجم الأنظار الموجهة إليها، فتستقطبها دون قصد.

لباسها كان مميزًا: طقم بيجامة قطنية بيضاء، مقلمة بخطوط سوداء دقيقة، تعلوها أحيانًا كنزة سوداء براقة. الحجاب يأكل ثلث وجهها، فلا يظهر منها سوى عينين كعيني قط، وقلنسوة تقيها برد الشتاء، وكمامة بيضاء تحميها من شرر كورونا. كان ذلك في كامب شنيبر، عام 2020.

غريبة الأطوار، باحتشامها وحيائها، كتحفة نادرة تشع منها الأصالة، يشكمها الدين وحسن التربية. لباسها المعتاد يشي بعفتها، بعيدًا عن الإغراءات التي تتبجح بها بعض الفتيات في سنها. ينبثق منها ألق كضياء مصابيح تتشظى من شعل، تبهج أوصال فتنتها، وتستثير الأضواء ببساطتها ونظافتها، كأنها ماسة وسط غيوم الكامب.

في كيانها غيداء، عفراء، هيفاء، ناعمة، فاتنة، مرآءة في حشمتها وحيائها، كصفة اللون في الزهرة. كانت تحمل في جيبها هاتفين، وكأنها إن فرغ شحن أحدهما استعانت بالآخر،

لكثـرة مهاتفتهـا. تهجـس بهـا كحمامـة تلهـو خـارج السـرب، مشغولة البال بأمر خاص، لا تهدأ.

حـين تهـاتف أحـدهم، تـدور حـول نفسـها باتجـاه واحـد، كعقـرب السـاعة، فـي دائـرة قطرهـا متـران أو ثلاثـة، كأنهـا مصـراع ميكـانيكي مبـرمج، لا تتعـب ولا تكـل، لا تتوقـف حتـى تنهـي مكالمتهـا. خـلال دورانهـا، تهجـس بهـا ترسـم فـي خيالهـا هـدفًا أقـرب إليهـا مـن ذاتهـا. راقبتهـا مـرارًا، لأشـغل وقتـي، وحاولـت عـد دوراتهـا، لكنـي عجـزت، فهـي مشـحونة بطاقـة لا تنفـد، ككوكب سيّار يسعى لاحتضان قرص الشمس.

فـي مهاتفتهـا، تبـذل جهـدًا مضـنيًا، تركّـز علـى إيصـال الفكـرة بسلاسـة، تحـرك يـديها ورأسـها، تصـرخ وتهـدأ كممثلـة بارعـة، تتعمـق فـي الفكـرة، تبحـث عـن مغزاهـا، كأنهـا ترتـب تفاصـيل زفـاف أو تجهيـز بيـت الزوجيـة. تبـدو كأنهـا محـور الفكـرة، ميـزان دقيـق للمعرفـة، عتلـة تـوازن يعتمـد عليهـا الطـرف الآخـر في ترتيب شؤونه.

بألقهـا، كانـت تفـرض ذاتهـا علـى المهـاتف، تقرضـه حتـى يرضـخ، تهـيمن علـى الحـوار دون عنـاء. وأجـزم أن الطـرف الآخـر مكبـول بهـا، لا يجـرؤ علـى مخالفتهـا أو مقاطعتهـا، مسـتمع فقـط، فهـي فـي مهاتفتهـا كآلـة جـرش، لا تسـمح للمقابـل بـالكلام، لثرثرتهـا وجهرهـا فـي الممـر كأنهـا مجموعـة عصـافير تزقزق في آن واحد، لا تمنح فرصة للمقابل أن يرد.

فـي انـدماجها، تعـزل نفسـها عـن العـالم، لا تسـمع ولا تـرى، كعجلـة متدحرجـة مـن قمـة جبـل نحـو سـحيق، لا تكـف عـن الدوران إلا حين تنفد طاقتها وتثبت رأيها.

فـي إحـدى الليـالي، بعـد منتصـف الليـل، وجـدتها تـدور قـرب غرفتي، لم أستطع عد دوراتها، فتقدمت منها ممازحًا:

– يا نور، اضغطي على دواسة الوقوف.

قالت بابتسامتها المعهودة:

– لا أستطيع.

فقلت مبتسمًا:

– يـا نـور، أنـت واهمـة، الحـج والعمـرة عـدد الـدورات سـبع مرات فقط، أنت تجاوزت المئة.

ابتسـمت برقـة وحيـاء، وكأنهـا تـود أن تقـول: لا تشـغلني، فأنـا الآن فـي عـالم الأرواح والسـعادة، أربـط وتـر العقـل والقلـب ببـؤرة الفكـرة، ليكـون لصـداها نغـم عنـد الطـرف الآخـر. لا تقطـع عني شبكة التواصل الملمة بحيثيات المستقبل.

كمـا توقعـت، كانـت تخاطـب خطيبهـا، فـي أوج ترتيـب الـزواج والزفة والسكن... كان الله بعونه.

صـارت كلمـا ترانـي تبتسـم، تتـذكر اعتراضـي علـى دوراتهـا المكوكيـة. تعـودت أن أراهـا بـذات البهجـة والألـق صـباحًا ومساءً.

وحين جاءت لجنة حل العقد من دائرة الهجرة، قدمت اعتراضًا على بُعدها عن خطيبها، ثم اختفت مباشرة. توقعت أن اللجنة استجابت، لكنها كانت تهرب من سجن الكامب لتقضي وقتها بين أهلها. هجست بها كطير مهاجر، تختفي ثم تظهر كنجمة سهيل الساطعة.

ما إن غابت، حتى هجست بانزواء الشمس، وكأنها كانت تضيء جدران المكان بحركاتها ونشاطها. رغم كثرة الفاتنات في البناية، إلا أنها حين غابت، تركت برواز فتنتها يؤطر ظلها على الجدران، وطيفها في الذاكرة.

عندها ران لذهني بيت أبي العتاهية:...

وفرز النفوس كفرز الصخور – ففيها النفيس وفيها الحجر

الصورة

كنتُ قد عدتُ لغرفتي في ساعة متأخرة من الليل، جلست على سريري أتأمل الحيطان واللوحة الزيتية المعلقة على الجدار المقابل لسريري، تخزق أذنيَّ ترنيمة الساعة الجدارية التي لا تكف عن إزعاجي بصوتها الرتيب تك – تك - تك، وكأنها تذكرني بالوحدة وحساب العمر الذي يجري لمطافه الأخير...

اللوحة أكثر ما شدهت انتباهي، صرت أشغل بالي بها وأحاول تفسير فكرة رسامها وماذا يبغي منها، أوحت إليَّ شعورا بالحزن وأنا أرى فيها وجه فتاة مراهقة أضناها الزمن، تغشي وجهها خطوط بؤس هميمه جراء عناء الزمن والفقر البائن على محياها ولباسها وعملها، تشقيها باقة حطب محمولة على ظهرها المعتد، ترتدي لبدة من الصوف، تحمي جلدها الرقيق من خدش خشونة عيدان الحطب، والتي ممكن أن تقرح جلدها تلك النتوءات المدببة.

تبدو جادة بحملها وهي تمشي في ممر ضيق مطرق من قبل السابلة، تربة مليئة بأنواع من أعشاب الشوك والعاقول والصبير والنباتات البرية الصحراوية والورود الجافة الشوكية، التي من الممكن أن تدمي قدميها العاريتين. مع ذلك تبدو في عندٍ وإصرار وعزيمة على مقارعة الطريق والظرف المحيط بها وهي تمضي باعتداد واضح.

ترتدي تحت اللبدة نفنوف شفاف من قماش الشيفون وردي اللون، مفلجة الصدر، يغطي بطنها وجزء من ساقيها حتى

الركب، مما يفضي إلى بروز مفاتن الجسد المغرية، المغنجة بالشبق، كإطلالة جزء من ثرى الثدي المنتبذ تحت حمالة الصدر، وذلك من خلال انحناء قوام ظهرها بزاوية منفرجة، لتوازن ذاتها مع ثقل الحطب المحمل على ظهرها خلال المشي. إضافة لبروز واضح في تكور عجيزها المصان بشكل دائري للخلف، وكأن الرسام ركز على مفاتنها ليثير انتباه الناظر بشكل ملفت للنظر، كأن الرسام تقصد في اتقاد شعل المفاتن ليجذب المشاهد للوحاته، بل أنه مريض فعلا بمرض سادي بما يخص أنوثة المرأة..

مع إطلالة مفاتن الجسد وتوافق ابتهاج رمان الصدر بالألق؛ بدتْ في محيطها تجذب النظر كوردة زاهية ترفل الطريق بألقها. فيما تبدو ساقيها المغنجتين بالرقة والفتنة كشطبي عود بان لاستقامتها وطراوة بشرتها، يشع منهنَّ حيوية وألق، مصقولتان من الشمع، للفيض الذي يسيح فوقهما. فيما ترتدي في قدميها حذاء أحمر من الجلد، يغطي القدم إلى الرسغ، ليقيءها عبث الأشواك وقَرَصْ الأحجار الصغيرة المشاكسة.

كانت تبدو أبنة السادسة عشرة أو الثامنة عشرة في السن، أي كانت في قمة الألق والرقة والطراوة. كأنها كانت تحارب الزمن والحجر والشجر والحر والوحشة بتلك الأنوثة الدبقة التي تركبها. أو بأن تلك المباهج تفتقر إلى الجاذبية دون أثر تلك الفتاة الرائعة. إذا ما أخذنا شعرها الاصهب يتدلى من تحت وشاح شفاف تلف بها رأسها تجنبا لتعشق الحطب فيه وللحفاظ عليه من الغبرة التي تفتعلها الريح بين آونة وأخرى،

وهو يحيط اسيل الخد وتلك الشفاه الريانة الباهرة بأنف يبدو كتمرة ناضجة وعينين عسليتين تجهد في فتحها، نتيجة الحر المضاع والعرق المتصبب من على الجبين.

وجدتُ في الصورة تمازج في تركيبة اللون والأبعاد التي رام إليها الرسام، أبهرني عمق المغزى، وجدتُ أبعاد الفكرة تلتقي في زوايا الفتنة توافق قدر الفتاة مع سحرها وفظاظة الطبيعة، تبدو كأنها ترتدي العزم والرجاء بذات الكيفية.

إبداعٌ ملفتٌ للنظر سطرته ريشة الفنان وبالذات في مواضع فتنة الجسد، أضفى مهارة في تجسيد الفكرة، أبدع في بروز الفتاة كعامل جمال رئيسي في الفكرة التي يبتغيها. تمكن الفنان من تعميق ذلك الخط الوهمي البارز في الفكرة بشيء من العبقرية، جسد الفكرة على أنها شخصية هلامية قائمة بذاتها تجول في منعطفات اللوحة برفقة الفتاة، إلى جانب التحدي الواضح في أصرار الفتاة المراهقة على المراهنة بقدرتها الفتية في طي ظل الوحشة والوحدة التي تعيشها تحت جلد وبأس الظرف.

لوحة تعبيرية جسدت حالة الفتاة وهي تشقى في تجاوز محنة الرزق وجمود الحياة بإصرار، بذا كأنه شكل مقارنة وهمية بين عمرها الفتي وقسوة الظرف.. إلى جانب إصرار الفتاة في تخطي عجزها، أوضح أمل زاحف يوازي طموحاتها، تراه حلم مغروس في التربة يقاوم الطبيعة كمقاومة الشجر لذاك الظرف، مع تواجد جربوع يزحف بخطاه خلف البنت، كانه

يتبع حيويتها التي فرضتها على الطبيعة، في تلك البؤرة المنعزلة. كأنه غرَّ بفتنة الحياة وجسد تلك الفاتنة..

كان الرسام قد أصرَّ إلى إبراز مواضع الفتن، ليدهش الناظر بقوة بصيرته، وضع اللغز في صرة الهدف، جعل المشاهد يغور في الفكرة التي تجتمع عليها الأفكار الاخرى، ليرتقي بالمشهد إلى شيء من البلاغة، ود جعل المشاهد عنصرا من عناصر اللوحة، لتتجاوز الفكرة حدود عناصرها وليستفيد من شكل المغازلة الحية بين الفتاة والمشاهد لها.

كأنَّ الجربوع وجد في الفتاة صفة إضافية تضفي الجاذبية على الطبيعة، لذا تبعها لينقذ ذاته من الوحشة والوحدة المكفهرة المحيطة به. أهجس بحاله لا يختلف عن حالي من ناحية الوحدة والحيرة والتعجب والالهام، جعلني اتبع غيه في تتبع فتن الفتاة بحثا عن لغز الحياة في الطبيعة وفي جسد الفتاة.

برع الرسام في أضفاء محيط الفتاة بالعقد، غال في الأدغال والأشواك والأحراش والوديان، أضفى التلول والمنحدرات لتجسيد معنى العناء والوحشة، إلى جانب تأثير عصف الريح على جسدها الملائكي، بحيث أينما تنظر تجد للريشة دور في إبراز حالة تثير بها فكرة المشاهد من خلال العناء والشخصية الوهمية الغائرة في ثنايا الفكرة والألوان المنشة بها، المرفلة في مبدأ الحضور في كل مرافئ الصورة. أعطى لهيئة الصورة إنمازا مبهرا في القدرة والتعبير، تمكن من إبراز روح الحركة في واقع الجمود.

لا أهجس بغموض في اللوحة، أينما أنظر أجد فيها شحنة كهربائية، طاقة إيجابية تضيء فكرة ما، أطرها بجاذبية عامة تشد الناظر إليها، سواء كانت في تجسيد الفتنة وعمر الفتاة أو في إبراز جلد الخريف وسرعة الريح السهجة وكثافة الشجر وعناء الجربوع. من خلال تناسق الألوان جعل المستحيل يذلل المستحيل.

قتامة اللون أضفى طابعا الحزن على ملامح الفتاة، إلى جانب طفح أمل شفق بين ظلال عينيها، من خلال عزمها وإصرارها على تحدي الظرف. كأنه أخذ الفكرة من لوحة موناليزا المشهورة للفنان ليونارد دافنشي، وهي تشد العزم على خصرها لمقاومة جلد الظرف البليد والفاقة، لمقارعة القدر برقة الجسد وخفة الدم والفتنة المراقة.

من جانبي وجدت في تلك السيقان المثيرة للشبق، ثورة فتن تنسحب على الساقين من الكاحل حتى الأرداف، في جاذبية سليطة تحتك بغريزة النفس الامارة بالسوء، تحث الناظر إلى تأمل إشعاع الفتن لما بعد الظاهر من ذلك، ومع ذلك أظلها الظرف، أعشقها في العمل لتجاوز حالة الفقر المربكة التي أجبرتها على تحمل قسرية الظرف والفاقة.

وجدتُ عناصر القوة مركز في ملامح الوجه وطراوة الثديين وبروز العجيز وطراوة الساقين، كأنها تمشي على حد السيف، بين أن تسقط في هوة العذاب أو تفلح في عبور المفازة لتجتاز عجزها وضعفها وفقرها المريب.

الفتاة تبدو عصامية، شديدة المراس، وكأنها أخذت شراستها من جلد الظرف والطبيعية، فهي لا تنظر لحشرجات ضعفها قط؛ أنما إلى مسجدات(إشارات) إرادتها لتتحكم بالظرف وأمور حياتها، لذا ربطت أحزمة العزم على بطنها، أودعت في ذهنها فكرة صماء تساند الظفر، كي لا تهتز عتلة توازنها، كي لا تكسر وتتقهقر.

كانَّ الفنان حين أودع الألوان في موضع الجاذبية، أعتمد في سره على عقد الطبيعة وإيجاد حلول لها، بحيث من ينظر للوحة من نظرة تفسير أو تخاطر يجد فيها شعلة نار إلى جانب جمود ثلج غارق في وجه الفتاة.. كأنَّه أراد بالنار إذابة ثلوج العجز، لتجتاز خط الرجاء الفاصل بين الشك واليقين، بين وجودها وعالم الوجود.

تلك اللوحة جعلتني أتمعن بأبعاد الجسد وملامح الوجه التي أغرتني، وبالذات التناسق في ملامح الوجه وفي تكور فتنة الساقين، احسبها كرذاذ مطر تغسل وجه اللوحة بالابتهاج. صرت أهيم بتلك المناظر الخلابة، جذبتني سيقانها، أغرتني فتنتها، هجست بها كحبيبتي تشاكسني بألقها. وأنا في غيي أصابني لاعج الهوى، تخيلتها مطروحة إلى جانبي في فرشتي وأنا أحضن وسادتي، مع إغماض عيني تخيلتها زوجتي، بت اشد عليها بغنج وأنا متدثرا ببطانيتي، لما لها من طلة تركت أثرا جميلا في النفس.

كأني انحدرت في غيي وإسهابي كثيرا حين خاتلت ظني، فأغدقت بتخيلي وخيالي في مفاتنها؛ حتى تهت في توهمي

بأنها عارية الجسد مطروحة إلى جانبي، خلتها عاملة النظافة التي كنت قد صرفتها في فترة الظهيرة، وكأني قد ندمت على فعلتي بإبعادها دون أن أجامعها. صرت أرهز بالوسادة بعنف، متلذذا بتلك المفاتن وأنا غارق بإستمناءة واستمالة لا أدري كم طالت وطافت بي، غارق في بحرها الطامي. كم راغت وزاغت في خيالي، فلم أشعر بتلك التفاهة والبلادة التي لازمتني إلا بعد أن تبلل رأسي بالعرق ولباسي بلزوجة ماء الحياة، حينها صحوت وعدت لرشدي الوم ذاتي على خسة فعلتي، عدتُ أجر عربة خيبتي وأقرح عيوبي متحولا إلى عالم التأفف والندم، صرت أكره نفسي الهزيلة، وهي تزحف خلف خيال لا يتوقف.

صرت أتلمس وجهي وأنظر لذاتي بالمرآة.

يا ترى؛ ماذا جرى لي وأنا أزحف دون وعي خلف كل فاتنة؟

حينها هجست كم أنا صغير أمام تلك الفتاة، لما فيها من تحد وإصرار وإيباء وقوة وشراسة لعبور مفازة الفقر نحو النجاح. حينها هجست بعصا الضمير تهفو على رأسي، لأستكشف جوف غابة الوحدة والهجر التي تكبلت بها في لحظة نسيان.

هجست بذاتي أصغر شأنا من تلك المراهقة، وأحقر من ذلك الجربوع الذي يتبع الحياة، لمست ذاتي دون عمق حقيقي. لا أدري أن كان سلوكي الغير متزن يقودني لطبيعة الناسوت أم هو مجرد من الايمان باللاهوت، أم يخضع لـ عسعسة

شيطانية تنسيني واقعي.. كأني خارج نطاق المسحة البشرية. حينها صرتُ أستنسأ ذاتي اللحظة الإيمانية، كي لا تسقط في مطبات الشك والقدر سقوط الحجر.

عدت أنظر إلى اللوحة مرة أخرى، تبدت كل التفسيرات من مخي، هجست بها لوحة فقيرة بريعها. كأني أخطأت في تقديري وبعد تفكير....

لكني ما أن ركزت بنظري على وجه الفتاة؛ حتى غمزت لي!!

دهشت، تطايرت من رأسي ظنوني الوانا على اللوحة، تلونت عينيها وشفتيها ووجنتيها بتلك الظنون..... ابتسمتْ لي!! صعقتُ. روح ما تدور في ملامح وجهها، ترى من تكون؟ أتكون متلبسة بجنية؟ أم جنوني شط بها، صار يعيد اداخلها في خيالي ونفسي وجنوني؟...

تركت الغرفة، دخلت للحمام لأستحم وأغتسل، لأجز العقد والارق الراكد عن ذهني وذاتي، صرت أقرأ آيات التعويذ، كأنَّ الحالة مقرونة بالوحدة والفراغ الذي ركب فكري، كأني لا أستطيع تخطي عجزي منذ أن فارقت زوجتي، بت أنوس في ذكراها، تائه بين مفاتنها ومفاتن كل سليطة حسناء من النساء.

فسيفساء العقد

في الأسبوع الثاني من وصولها إلى الكامب، شعرت مرام أن الحياة هناك لا تُطاق. الجدران تضيق، والوجوه تتكرر، والروتين ينهش روحها. لم تكن القوانين سوى قيود، والحرس مجرد ظلال متخمة بالعقوبات.

فكرت أن تمتهن سلوكًا آخر، أن تخرج عن النص، أن تهرب من الكامب لأيام، علّها تجد في نبع الحب ما يشفي غليلها. غابت ثلاثة أيام بكنف زوجها، لم تصبر على فراقه، قضتها خارج جحرها، بين ثنايا الشوق، عدّتها فترة نقاهة تعيد لها حيويتها وبهاءها.

لكن الأيام لا ترحم. بدأت العقد تتكدس في طرقاتها كركام النفايات، كلما أزالت إربًا منها، تفاقمت أخرى، كخلايا السرطان. تحول يومها إلى مكب نفايات نفسي، تتنفس فيه الكدر وتختنق بالملل. حاولت بشتى الطرق علاج مرامها، لكن الغاية كانت ضبابية، لا تُدرك إلا نادرًا.

تحولت الحياة من صفاء إلى رجاء، ومن رجاء إلى ملل، ومن ملل إلى رتابة. حتى مهاتفة زوجها صارت تكرارًا للأحاديث ذاتها، طرحًا للعُقد دون جدوى. في الفطور والعشاء، لم تعد نغمة الشهوة تعلو، بل نغمة الروتين. الطعام بلا تجديد، والغداء باهت الطعم، تتبعه أوامر صارمة من إدارة الشركة، أجواء مخلخلة في ظل وحدة سليطة لا ترحم.

صارت مرام تمتهن العقد: نفسية، ذهنية، جسدية، اجتماعية، وغريزية. حتى تعاملها مع رجال المارتيزر، أولئك الحراس المتخمين بعقد القوانين العقيمة، زاد من أعبائها. المكان نفسه كان سلبيًا، ينهش الذات ويقمع التأمل.

كل ذلك تحوّل إلى فسيفساء من الجزم والعناء، تفقع قواقع تأملاتها يومًا بعد يوم، وسط شرذمة من المهاجرين المختلة والمختلفة ألوانهم وسلوكياتهم وطباعهم. كانت مرام تراقبهم، تحاول أن تجد فيهم ما يعيد لها الأمل، لكن الرتم المحيط بها كان أقوى من قدرتها على المقاومة.

في نهاية كل يوم، كانت تنظر إلى سقف الغرفة، تتساءل: هل هذه هي الحياة؟ أم مجرد نسخة مشوهة

منهـا؟ وبـين سـؤال وآخـر، كانـت تغفـو علـى وسـادة مـن العقد، وتستيقظ على ركام جديد.

آخر المشوار

مـا أن أنهـى مهاتفتهـا؛ حتـى علـم بانـه قـد أدرك معهـا نهايـة المطـاف، أدرك حـدود العلاقـة الزوجيـة، كانـت قـد شـطبت السـطر الأخيـر مـن احتماليـة الالتقـاء بـه مجـددا والتفـاهم معـه على أمور الخلاف.

كانـت قـد أبصـمت علـى خـتم مشـوارها معـه بالشـمع الأحمـر، بعـد أن وجـدت قناديـل شـبابها تهفـت نحـو الأفـول؛ طالمـا بقيـت تنتظـر ذلـك الفـرج أن يحـل علـى يديـه وهـي علـى ذمتـه؛ إلا أنـه كان معصوب العينين، لا ينظر إلا باتجاهٍ واحدٍ فقط.

تمكنـت حميـدة أخيـرا مـن وضـع حـدا لسـلوكه المتعجـرف، أوقفـت تلـك الإهانـات التـي كـان يكيلهـا لهـا، وتجاوزاتـه علـى أهلهـا ونسـبها بسـبب ودون سـبب، لقـد قـررت تنقـيط حـروف جمـل العلاقـة التـي كانـت غيـر منقطـة مـن يـوم زواجهـا بـه، والتـي كـان لا يفقـه معانيهـا. تلـك العلاقـة المبهمـة جزلـت سـنين الـزواج، لـذا قررت مواجهته بافتعال الصدمة.

تلـك هـي الطريقـة الوحيـدة التـي تسـتطيع بهـا إيقـاف نـزف حياتهـا معـه، والتـي مـن خلالهـا يمكـن تقـدير سـلوكه وتصـرفاته الغيـر مسؤولة تجاهها.

لـم يكـن يتوقـع أن تكـون لهـا جـراءة وإرادة حـرة تفجرهـا بوجهـه، تحضضـها علـى رفـع السـيف فـي وجهـه، مواجهتـه، لـم يكـن يـدرك خطـورة عصـف المـرأة أن وجـدت متنفسـا فـي ميـدان

الصراع ماذا ستفعل به. لمْ تأتِي الصدمة من عبث، أنما نمت وكبرت مع وتيرة إجراء أفعاله واشتداد الصراع واستفحال الجدل، جاءت على ضوء انحراف خط سلوكه العام عن حقوق الزوجة، عن صيغة مبدأ سيطرة الرجل.

لم يجارِ مشاعرها، لم ينصف تضحيتها، كانت ثقته بنفسه عمياء، أكبر من حقيقة سلوكه وتصرفاته معها. لذا ما ان بدأت تبرز لها مخالبا في الغربة؛ حتى غرزتها في عنق تلك العلاق الهشة. كان يعيش خترفة أحلام بعيدة جدا عن واقعه المرير، عن واقع حدود الأسرة ومشاكلها، وبالذات في متابعة صغيره المرهق بالزكام، نتيجة برودة اجواء السويد.

ذلك المطاف جعل حميدة تكتم الغيض في نفسها، غدت أشبه بالعبوة الناسفة، تنتظر كشط صدفية العلاقة التي تجمعهما لتنفجر بوجهه. تلك العبوة هو من صنعها دون أن يعلم، هو من زرعها داخل بيته دون أن يفهم، هو من دشنها في سريره دون أن ينتبه، ودون أن يعي أبعادها وشدة تأثيرها.

هو من شرع في إيقاد فتيلة العبوة، هو من عبث بشرارتها، حتى احترقت جدران البيت، بعد ان غال في تعسفه وحبه لذاته على حساب احترام تلك العلاقة..

ما أن حصلت زوجته على الإقامة الدائمة؛ حتى بصقت في وجهه، نبذته، تركته يأن وحيدا بين الجدران.

كانت قد بزغت عُقد الخلاف بينهما كورم سرطاني منذ بداية الزواج. تراكمت مخلفات سلوكه المشين في ذهنها عبر سنين

الـزواج الأعـرج، اختنقـت خلالهـا أزاهيـر شـبابها تمامـا بـدخان شخصـيته المعقـدة، حتـى أضـمحلت تحـت أسـيدة شخصـيته كصورة دون روح وملامح.

خـلال تحكمـه كـان قـد جـزل حريتهـا؛ عـق بريقهـا، حجـم وجودهـا، دعـس عليهـا قبـل أن تـتمكن مـن أن تسـتنجد بالشـرطة لينقذوها مـن ضـيم فـرض عليهـا.. حينهـا الـتمس ضـفة قـدره، بعـد ان غربـت شمسـها عـن نافذتـه، اختفـت عـن عالمـه تمامـا، تحولـت حياتـه لقفـار مظلمـة، لـيس فيهـا سـوى ذكريـات يناجيهـا كـالنجوم والقمر.

كانت آخر ما قالته له عبر الهاتف وهي في أوج غاضبها:....

- أنتهـى المشـوار، لا تلزمنـي عشـرتك بعـد اليـوم، لـم تكـن أهـلا لتلـك العلاقـة النزيهـة، لـم أجـد فـي قربتـك الفارغـة سـوى الهـم والغـم والعـذاب. جعلـت حيـاتي كـوة نـار متقدة مـن يـوم الـذي تزوجتـك بـه، مـرارا حاولـت أن أقومـك دون جـدوى، تحملـت قرفـك وسـخطك وقسـوتك مرغمـة، تحملـت أبشـع صـنوف الـذل والهـوان، تبعـت عبثـك كالعميـاء، مـا كنـت أظنـك أعمـى القلـب والعـين، بحيـث لا تـرى حيـاتي وأنـت تـدعس عليهـا بقـدميك. الأيـام الحلـوة لـم تقلـم أظـافرك، لـم تنسـيك جبروتـك، فلـم تتخلـى عـن همجيتـك التـي تطبعـت بهـا...لـذا لـم أجـد جـدوى لوجـودي فـي حياتـك، انتزعـت منـي كرامتـي وشخصـيتي، أفسـدت أنـوثتي، جعلتنـي جاريـة تلبـي رغباتـك، كسـرت مـرآة أنوثتي بعصا إهمالك.

- أتركـــي لـــي فرصـــة تصـــحيح المســـار؟ أنـــت عشـــيقتي وحبيبتي، لدينا طفل يحتاجنا معا.
- وأنـت لـم تقـدر ذلـك، قسـوتك، همجيتـك، تجـاوزك علـيَّ بالضـرب المبـرح دون مبـرر، عـن أي شـيء أصـفح، كنـت عميـاء، معزولـة، وحـين وصـلت لهنـا تفتحـت عيناي وبقيت أنت أعمى، لا تبحث سوى عن الجنس.

بعـد تلـك المحادثـة أغلقـت الهـاتف وغيـرت شـريحة هاتفهـا لتنقطـع عنـه إلـى الأبـد، لتختفـي فـي خضـم زحمـة المـدن والمسافات، بعيدا عن خط القلق والحيرة الذي كبل حريتها.

كـان جمـال قـد هـاجر إلـى السـويد مـع زوجتـه حميـدة نتيجـة تفـاقم أوضـاع الحـرب فـي سـوريا، وكانـت زوجتـه قـد ولـدت لـه طفـلا قبـل الهجـرة بسـتة أشـهر، فكـان ذلـك الطفـل هـو السـر الوحيـد الـذي جعلهـا صـابرة علـى بخلـه وجبروتـه وسـلوكه الأهـوج الهمجي...

خـلال مكوثهـا معـه فـي حلـب، تعـودت علـى نمـط حيـاة الفاقـة التـي تألفهـا عائلتهـا، كـان أبوهـا موظفـا بسـيطا، يكـاد مرتبـه لا يسـد رمـق عيشـه. فيمـا كـان زوجهـا أفضـل حـالا. كـان قـد تطبـع علـى القسـوة التـي اسـتقاها مـن تربيـة أبـوه وطريقـة تعاملـه مـع والدتـه. أعتبرها جارية في بيته، جعل والده مثله الاعلى.

لـبس عـادات مجتمعـه القـروي، تعـود علـى الكسـل والتنبلـة، فـي الوقـت الـذي بـه كانـت تلبـي جـل طلباتـه. فهـي لـم تجـد مناصـا مـن عـدم تنفيـذ أوامـره، فـي ذاتهـا كانـت قـد هربـت مـن مذلـة الفقـر

لتعشق ذاتها في مذلة الأوامر، وجدت ذاتها مرغمة على تقبل تلك المعيشة المزرية، خاصة بعد قدوم وليدها، تأملت أن يغير طباعه مع الوقت، لكنه كان حجرا أصم.

تلك هي الزوجة التي أرهقها عاطفيا وذهنيا دون أن تتمكن من فتح فاهها في مدينة حلب، لإلا ترمى رمية الكلاب بين ألسنة الناس، في مجتمع لا ينصف المرأة المطلقة بتاتا، تحملت وزر زوجها بالصمت والسكوت، رضيت بالعيشة المرة أكراما لفلذة كبدها، الذي أضفى عليها هدوءً وبصيرة.

لكن عندما وصلت السويد، وجدت متنفسا حقيقيا لحريتها، وجدت متسعا لفرض حقوقها كمرأة تحت ظل القانون السويدي الذي يساوي بين حقوق الرجل والمرأة. بل أنه يحرض المرأة على الانفصال، والتمتع في فضاء الحرية. لذا بعد أن تيقنت من مصيرها؛ أضرمت النار في هشيم العلاقة بمجرد أن حصلت على الإقامة.

لم تنفع تأملاتها التي ذهبت أدراج الريح، بقي متمسكا بتلك العجرفة والنظرة الدونية التي ظل ينظر بها إلى الزوجة كخادمة يتحكم بمقدراتها..

غروره أعماه، طفله لم يؤثر به، حتى اكتشفتْ زوجته بأنه فارغ الذهن، هش من الداخل، لم تجد فيه ميزة تجعله ذا قيمة تحترمه.. وجدته غارب في خيال بعيد عن واقعه، شّخصيّة من النوع السيكوباتيّة: تتحكم به شهواته وأطماعه، خالٍ من

صبغة المشاعر والأحاسيس؛ متمسكا بكبريائه على حساب العلاقة الحميمة، فاقدا صفة الإيثار.

من طبيعة المرأة تحب زوجها، تتفاخر به، تلك الغرة بقيت تتحصر عليها، دائما ما تجدها مهمومة بوحدتها، محتارة في تلبية متطلباتها ومتطلبات وليدها. تهجس بها كمكينة الحرث تجد في محاولة كسب وده ورضاه، وإذا ما تخلفت عن أمر ما؛ يكيل لها الضرب دون مقدمات.

من جانبها كانت تحاول الحفاظ على الرمق الأخير دون أن تفسد الود، لكونه أبو أبنها من جهة، ومن جهة أخرى تهجس بأنها لا زلت صغيرة السن لن تحتمل فجوة الوحدة ومشقة الحياة في ظل غربة لم تتأقلم عليها بعد.

لكنه قطع حبل الوصل، أحرق فرصة تحملها ضيمه؛ عندما أختلق في ليلتها الأخيرة عقدة فض مخزونها العاطفي، عندما كال لها الضرب لأسباب تافهة، تلك الشعرة قصمت ظهر البعير، اختنقت اجوائها بسموم الدخان. عندها بدأت تبحث عن صرة أمان تضفي عليها الهدوء والاستقرار، لذا في صباح اليوم التالي أرتمت دخيلة بأحضان السوشيال (المنظمة الاجتماعية) الذين شرعوا لها الأمان في بقعة نائية بعيدا عن زوجها، لتفرض عليه الطلاق إلى الأبد.

زيارة صديق

هاجني الشوق لزيارة صاحبي وصديقي ورفيق دربي "وصفي" في مدينة خانقين، بعد انقطاع دام سنوات طوال، فرضته تقلبات أوضاع الوطن خلال المرحلة الحرجة من عمر الطائفية التي شطرت البلاد نصفين. اتفقت معه على أن أزوره صباحًا وأعود إلى بلدتي مساءً، إذ تفصل بين مدينة بعقوبة، حيث أسكن، ومدينة خانقين أكثر من مئة كيلومتر، تتخللها طرق وعرة وخطرة، تنتشر فيها عصابات السرقة والإجرام، تسعى لإثارة الفوضى وبلبلة الأوضاع الداخلية، وفوضى لغاية في نفس يعقوب.

انطلقت باكرًا، فوصلت داره قرابة التاسعة صباحًا في الأسبوع الثاني من شهر آذار. كان قد استأذن من دائرته (دائرة الكهرباء) لساعة زمنية كي يستقبلني في منزله، علمًا أن الدائرة لا تبعد عن مسكنه سوى عشر دقائق مشيًا على الأقدام.

ما إن وصلت إلى داره المنزوية في نهاية الشارع، حتى تزحلقت قدمي في بركة طينية أمام عتبة المنزل، فزحفت قليلًا ثم سقطت على مؤخرتي وسط البركة، وقد تغطت ملابسي بالطين، وطمست نظاراتي، وتحطمت الهدية الزجاجية التي كنت أحملها خصيصًا له: مرآة جدارية كهربائية راقية.

صرت ألعن الشيطان وأنا أتمرغ في وحل الطين الغريني، محاولًا النهوض وأنا أترنح. كانت المرآة قد تشظّت من وسطها. وعندما طرقت الباب وفتحه وصفي، همّ أن يحتضنني، لكنه تراجع مذهولًا، وعلى وجهه علامات التعجب، إذ وجد أمامه شبحًا غريبًا، مموهًا بلباس مطين، لا يكاد يُعرف.

تلون وجهي بلون الزعفران والطين، خجلًا وهوانًا وانكسارًا، فصرت أشنف وجهه بنظرات شزره. تفاجأ من دمامة مظهري، وشعري المتشعث، وملابسي المهلهلة، وقد التصق الطين بها حتى غدت مغشاة بشناعة العناء وغراء الوحل. تأسف كثيرًا لحالي، وسألني بخجل واستغراب عن شكلي المقنع الذي ظهرت به، إذ بدا المنظر كأنني أحد المساكين، لا يسرّ عدوًا ولا صديقًا.

قال مازحًا:

– من أرى؟ شمشون؟! هههههه، ماذا جرى لك يا عادل؟

فأجبته:

– نعم، هذا أنا شمشون! وهذا من شيم الكرم الذي تتصف به، أليس ما جرى لي بسببك؟ أنت السبب! أهملت موضوع الوحل أمام دارك عن قصد، كي لا يزورك أحد، يا بخيل!

ضحك ضحكة لم يستطع كتمها، محاولًا مداراة الموقف بما أسعفه الخجل، وقال:

– والله صدقت، حقك علينا، أنا آسف. المهم أنك بخير، وسنصلح أمر الملابس حالًا، إنها أمور بسيطة. ادخل البيت وسنتدبر الأمر بإذن الله.

أدخلني إلى حمام البيت، وكان في حالة حرج واضحة، إذ لا يملك ملابس تناسب حجمي سوى زي كردي: شروال (سروال عريض محدد من طرفه السفلي)، وشال للرأس (شراوية)، وقميص أو مريول من نفس نوع القماش، مع إزار شيفون تلف على البطن تحزم الخصر، بالإضافة إلى حذاء بلاستيكي رقم 42 يناسب قدمي.

كان ذلك اللباس الوحيد الملائم لحجمي، إذ لا تُؤخذ القياسات الدقيقة في صناعة الشروال. عرضه عليّ بخجل، فقبلت عرضه على مضض، إذ لا مناص من رفضه، فارتديته وأنا غير مقتنع بقيافتي.

بعد أن اطمأن على وضعي، استأذن للذهاب إلى دائرته، على أن يعود بعد الساعة الثانية ظهرًا، وطلب مني اعتبار البيت بيتي حتى عودته. حمل ملابسي الملطخة بالطين في غرارة إلى مصبغة الملابس (اللاوندري)، لتُغسل وتُجهز خلال ساعتين. كانت المصبغة تقع في رأس الشارع من جهة اليسار، قريبة جدًا من دائرة الكهرباء.

بعد خروجه، وقفت أمام المرآة أستعرض ذاتي بلباسي الجديد، بشيء من الحيرة والعجب. احتجت وقتًا لتقبل هذا الزي،

فصـرت ألـف إزار المحـزم علـى بطنـي وأفكـه مـرارًا، حتـى شعرت بمقبولية مظهره.

ومـا إن خـرج وصـفي إلـى عملـه، حتـى خجلـت مـن بقـائي وحيـدًا فـي البيـت بوجـود زوجتـه، فقلـت لنفسـي: دعنـي أخـرج فـي جولـة قصيرة حتى يعود من العمل...

وأنـا أتمعـن بصـورتي الجديـدة فـي المـرآة؛ كنـت اسـتند بعجيـزي علـى طاولـة خشـبية تقـع خلفـي، وإذ بهـا تميـل جانبـا لتنحـرف وتسـقطني أرضـا، مـع سـقوطها سـقطت فوقهـا لاخـتلال تـوازني، وإذ بهـا ينكسـر أحـدى قوادمهـا الاربعـة التـي تسـتند عليـه، حينهـا خجلـت مـن ذاتـي وكرهـت حظـي الأسـود فـي هـذا اليـوم، أضحيت في حالة يرثى لها.

بقيـت جالسـا علـى الارض وأنـا أشـعر بغليـان فـي داخلـي وهـذيان فـي فكـري وبحالـة عينـيَّ الغضيضـتين المنكسـرتين، بـتُ لا اسـتطيع رفعهمـا بوجـه زوجتـه التـي جـاءت تطمـأن علـيَّ خجلا وتأسفا. حينها رأفت بحالي وهي تواسيني قائلة لي:..

قالـت لـي زوجـة صـديقي بابتسـامة هادئـة، محاولـة تهدئـة اضطرابي وتلطيف الموقف المهزوز:

– لا بأس يا أخ عادل... إنها قديمة، ونحن نود استبدالها.

كانـت كلماتهـا بمثابـة بلسـم علـى جـرح خجلـي، محاولـة تطييـب خـاطري المتـأزم، وتخفيـف وطـأة الزنقـة التـي التفـت حـولي وأرهقتنـي. اسـتأذنتها للخـروج، وعينـاي خلجتـان خجلتـان، جـراء

فعلتـــي التـــي لـــم تكـــن ســـوى رعنـــة حـــظ بـــاغتتني دون إرادة. شـــعرت أن بقـــائي فـــي البيـــت دون وجـــود زوجهـــا غيـــر لائـــق، فغـــادرت وأنـــا مثقـــل بالانكســـار والألـــم، وقـــد عقـــدت العـــزم علـــى إصـــلاح قـــدم الطاولـــة قبـــل مغـــادرتي خـــانقين، كـــي لا أتـــرك خلفـــي ذكرى سيئة.

خرجت تائهًا، كأنما أصابني مسٌّ من الغيلان، يدور رأسي في دوامة التيه، لا أدري إلى أين أتجه. كانت تلك أول مرة أرتدي فيها الزي الكردي بطقمه الكامل، وشعرت حينها أنني نشزت عن أصلي، وأن هناك خطأً ما يعترض قيافتي، إحساس نفسي أربكني. لم أستطع وصف الحالة بدقة، لكنني شعرت أنني لست أنا، وكأن الملابس لا تليق بي، أو أنني لا أليق بها. شعور بالاختلال، كمن يشعر أن على رأسه ريشة، بسبب عدم تطابق فكرة الملابس مع شكلي ولساني.

كنت خجولًا من أن يصادفني أحد في الطريق ويتحدث إليّ بالكردية، فلا أستطيع الرد عليه، فيتصورني نطسًا، فتتجه أفكاره نحو تصورات بعيدة عن الواقع، وقد يراني مخبولًا أو مشعوذًا أو جاسوسًا أو أي وصف آخر يختلقه ذهنه. لذلك، آثرت الابتعاد عن الناس، وقررت التوجه إلى جهة خالية من البشر، نحو نهر الوند القريب من الدار، من الجهة الأخرى، لأستمتع بالطبيعة الخلابة والخضرة التي تكسو الأرض، خاصة ونحن في مطلع فصل الربيع.

اخترت ذلك الطريق لأبعد نفسي عن الشكوك والسخرية التي قد تطاردني، ولأكون في مأمن من التهكم والاستهزاء، الذي

قد أشعر به داخلي وأنا أرتدي لباسًا جلب لي حظًا عاثرًا في هذا اليوم. أردت تجنب مواجهة الآخرين بشخصية لا تمثلني، خاصة أن اليوم بدأ معي بعكرٍ ومعاكسة لما كنت أتمناه، وكأن العقد النفسية تجلت في لقائي، فوطأة متني من تلقاء نفسها، أو أن الشيطان وسوس لي فاقترنت به.

شعرت حين ارتديت الشروال أن كياني انقلب رأسًا على عقب، وأن الشخصية التي أراها في المرآة لا تمت لي بصلة، صارت هيولية، مبعثرة، بلا طابع ملموس، مموهة بألوان الطيف، لا تنتمي لذاتي الحقيقية. لذلك، تجنبت إشراكها في أي مماحكات جماعية أو فردية، وتوخيت الحذر بكل ما أستطيع، لأبعد الشك عن صوت القدر الذي يلاحقني.

وعندما وصلت إلى شاطئ النهر، وجدت منسوب المياه مرتفعًا عن مستواه الطبيعي، نتيجة تدفق مياه الأمطار. فالنهر، الذي هو بالأصل وادٍ صغير، تجري فيه المياه القادمة من الأراضي الإيرانية، لا يتجاوز عرضه عشرة أمتار في أفضل حالاته، لكن في ذلك اليوم كانت المياه شرسة، مستفيضة، بسبب الأمطار الغزيرة التي هطلت قبل يومين.

عند نقطة معينة، وجدت معبرًا خشبيًا يربط ضفتي النهر، عبارة عن مساطر خشبية بعرض قدم ونصف، صنعه المزارعون الذين يزرعون محاصيلهم الصيفية في الجهة الأخرى. لم تكن هناك قناطر تفي بالغرض في تلك البقعة. كان المعبر مكونًا من ألواح خشبية مثبتة بمسامير على مسند

يزيدها سماكة لتحمل الأوزان. لاحظت أن المسند يستند على صخرة متوسطة الحجم في نهاية المعبر.

وفي الجانب الأيمن من الصخرة، عثرت على لوح خشبي يشبه تمامًا مسند الطاولة الذي كسرته، مطمورًا في التربة حتى نصف طوله، وكأنه نسخة مطابقة من حيث الحجم والقياس والسماكة واللون. قلت في نفسي: "سبحان الله، كأنّ الله يحبني، فأرشدني إلى هذه النقطة النائية لأصلح الطاولة، وأصلح بها شأني أمام صاحبي".

شعرت وكأنني وجدت القطعة التي كنت أبحث عنها في قرارة نفسي، فصرت أسحب اللوحة من باطن الأرض، مبذلًا جهدًا مضنيًا، حيث كانت مدفونة حتى نصف متر. حركتها يمينًا ويسارًا حتى تمكنت من تحريرها وسحبها رويدًا رويدًا، رغم خشونة التربة وعمق دفنها.

وأنا أجهد في سحب اللوحة، والعرق يتصبب من جبيني، سمعت رجلًا من الطرف الآخر من النهر يهذي ويصرخ ويسب ويلعن بالكردية. هجست به مجنونًا، كأن الدهر أهوى به إلى شيطانه، يتخيل خصمًا يقاضيه في الطرف الآخر. رأيته يركض ويعربد بصوته الأجش، ناويًا عبور المعبر.

التفت يمينًا وشمالًا، فلم أجد أحدًا غيري في المكان، فتيقنت أنه غير سوي، خاصة أن منظره المشعشع يدل على ذلك، وكان يرتدي فانيلة بيضاء وشروالًا مكفوفًا حتى الركب. لم أعره اهتمامًا، تركته يسب ويلعن، فهو يتحمل جريرة غضبه،

ثم ماذا سأقول لرجل يهذي؟ وأنا لا أفهم الكردية أصلًا، ولا أعرف أحدًا في المدينة سوى وصفي.

أهملته، سرت الأمور بسلام وأنا أشنف إليه بنصف نظرة وهو يعبر المعبر، وكان مزاجه عصبياً جدًا. وقبل أن يتجاوز نصف المسافة، كنت قد سحبت اللوح من مكانه، فاهتز المعبر تحت قدميه، ثم مال به جانبًا، وسقط في وسط النهر، هو والمعبر، في مجرى المياه الطينية. صار يطبطب بيديه محاولًا إنقاذ نفسه، لكن دون جدوى، فالنهر كان يجرفه بتياره، وهو لا يعرف السباحة.

هممت بمد يد العون، لكن اللوح كان قصيرًا لا يفي بالغرض، فاحترت في طريقة مساعدته. وقبل أن يغرق، وجدت حبلاً مرميًا على جانب الجرف، فرميت له طرفه، فتمكن من التقاطه والتشبث به، حتى سحبته إلى حافة الجرف. أجريت له تنفسًا اصطناعيًا، حتى عادت له روحه، وبدأ يتنفس طبيعيًا بعد أن أفرغ المياه من معدته.

بعد أن استعاد وعيه، حاولت تطييب خاطره، فقلت له:

– الحمد لله على السلامة، لولا وجودي لكنت في عداد الموتى. كيف تعبر النهر وأنت لا تجيد السباحة؟

– أأنت عربي؟

– نعم.

– لماذا ترتدي الملابس الكردية؟

– آه... إنها حكاية طويلة. قل لي، كيف تشعر الآن؟

– أشعر بالزفت والقرف... يوم أسود هو يوم رأيت فيه وجهك.

– لماذا يا عم؟ ماذا فعلت لك لتسبني؟ للتو أنقذتك من الموت!
– يا غبي! أنت سبب سقوطي. رفعت اللوحة الخشبية من تحت الصخرة، فاختل المعبر. لولا وجودك الشيطاني، ما كنت سقطت في النهر. اللوح الذي رفعته كان مسندًا للصخرة التي بني عليها المعبر، وبرفعك له تحركت الصخرة، فمال المعبر وسقط. هل فهمت جريرتك أيها الغبي؟

بقيت ساهيا في وجهه، لا أعرف ماذا أقول، أتمتم بكلمات آسف تتطاير من شدقيّ. حينها فهمت لماذا كان يصرخ ويعربد، لقد كان يصرخ عليّ، وكان يتحدث بالكردية، لأنه ظنني كرديًا بسبب ملابسي. بينما أنا ظننته مجنونًا، وهو ظنني مخربًا عبثيًا. لم أرد عليه بكلمة، لأني لم افهم عليه ولم يكن في حسباني.

المسكين اضطر لعبور المعبر ليزجرني ويوقف عبثي، الذي تجاوز حدود القدر والنية دون أن أدرك نتائجه.

هههههههه، آه يا دنيا... كم من حوادث عبثية بريئة تفضي إلى نكبات جسيمة دون قصد، ومن النادر أن يتطابق ما يجري بين يديك مع ما يدور في ذهنك.

من نكد الدنيا أن تجد عبثًا يغلك، وخيوطه تقيدك

مكتب السفريات

ما إن عاد وسام من مشواره، حتى توجهنا معًا إلى مكتب السفر، حيث سألت الموظفة عن إمكانية تغيير التذاكر من فئة الطيران إلى السفر عبر الباخرة. لكن ردها جاء قاسيًا وحازمًا، خالٍ من أي مرونة أو تفهم، إذ قالت:....

- لا يمكن تغيير التذاكر، وتذكرة الطيران أصبحت محروقة. يمكننا فقط إعادة ضريبة المطار البالغة 100 يورو لأنكم لم تسافروا.
- لكننا دفعنا 900 يورو، وهذا غير عادل.
- آسفة، لا أستطيع مساعدتكم. أنا ملتزمة بالتعليمات.
- وكم تكلفة السفر بالباخرة؟
- تكلفة الشخص في الطائرة 120 يورو، والباخرة 70 يورو .

كنا خمسة بالغين بتذاكر كاملة، وطفلين بنصف تذكرة، ما يعني أننا بحاجة لدفع 420 يورو إضافية. اتصلت بسلام وشرحت له الموقف، فطلب أن يتحدث مباشرة مع الموظفة. وبعد جدال لم أفهم منه شيئًا، صرخت الموظفة في وجهه وأعادت إلي الهاتف. قال لي سلام:...

- لا تغادروا المكتب، نحن في الطريق إليكم.

انتظرنا قرابة عشر دقائق، وخلالها حاولت التفاهم مع المدير، لكنه رفض أي تساهل ولم يبدِ أدنى اهتمام. ثم فجأة، دخل

سلام وفريقه يزيد عددهم عن عشرة أشخاص، يحملون كاميرات تلفزيونية، أضواء، ميكروفونات، أجهزة تسجيل وإرسال، يرتدون قمصان الأمم المتحدة والصليب الأحمر، وكأنهم فريق صحفي متكامل.

كان دخولهم صاخبًا ومفاجئًا، أحدث ارتباكًا وذهولًا بين الموظفين والزبائن. توقفت الأعمال، وتجمّد الجميع في أماكنهم، مذهولين من هذا المشهد غير المألوف. الكاميرات بدأت تدور وتلتقط الصور، وكأنهم بصدد كشف فضيحة كبرى.

أشار إليّ سلام لأدلّه على الموظفة التي تحدث معها، فوجهت إليه إصبعي. توجهت الكاميرا نحوها، وبدأ سلام يوبّخها باللغة الإنجليزية، بلهجة صارمة ومسؤولة، حتى أخرسها تمامًا. باتت ترتجف وتعتذر علنًا، خائفة من أن يؤثر هذا الموقف على مستقبلها الوظيفي.

قال لها سلام على قدر ما فهمت من الانجليزية:..

- " من أجلسك خلف هذا المكتب لتعاملي الزبائن بعنجهية وقلة ذوق؟ كيف تزعقين بوجهي وأنت تعلمين أنك على باطل؟ (ثم موجّهًا كلامه للجميع) هذا بث حي لقنوات التلفزة، وسيراه العالم بأسره. نحن نعرض عمليات النصب التي تمارسونها بحق المهاجرين، هؤلاء الذين هربوا من جحيم الحرب ليواجهوا هنا جحيم النصب والاحتيال."

أصفر وجه الموظفة، وبقيت صامتة. ثم توجهت الكاميرا نحو المدير الجالس في زاوية المكتب، وقد بدا عليه الذهول والارتباك. لم يصدق ما يحدث أمامه. كان سلام وفريقه يملؤون المكان بأجهزتهم، كل منهم يؤدي دورًا: صحفي، مصور، مسجل، حامل إضاءة، وآخرون يرتدون زي منظمات إنسانية.

ادّعى سلام أنه يمثل عدة جهات: الإغاثة، الصليب الأحمر، قناة فضائية، والأمم المتحدة، وأنه مكلف بنقل معاناة اللاجئين إلى العالم.

توجه إلى المدير وقال له:..

- أمامك 24 ساعة لحل مشكلة هؤلاء المهاجرين، أو سنغلق المكتب. كيف تبيعون تذاكر طيران لأشخاص لا يملكون جوازات سفر؟ وكيف تمنحونهم تذاكر بهويات سورية وهم عراقيون؟ تستغلونهم لعدم درايتهم باللغة اليونانية - كل هذا سنعرضه في بث مباشر، أو تحلوا المشكلة الآن.

تلعثم المدير، ولم يستطع الرد. كان سلام يطلق عليه "رصاصات" من الحقائق، دون أن يترك له مجالًا للرد. بدا المدير كمن يتلقى الضربات تلو الأخرى دون مقاومة، بينما سلام واقف أمامه كالأسد الذي هجم على جربوع في وكره.

قال سلام:....

- الخطأ الأول من الشرطة التي منحتهم أوراقًا سورية، والخطأ الثاني منكم إذ منحتموهم تذاكر دون التأكد من وجود جوازات سفر لديهم. ما ذنبهم وهم لا يفهمون اللغة اليونانية؟ يجب أن تتحملوا المسؤولية، وإلا سنبث التقرير الآن.

ارتعب المدير، وبدأ يتوسل إلى سلام بإيقاف التصوير، مؤكدًا استعداده لحل المشكلة. أُطفئت الكاميرات والأضواء، وقال سلام:...

- حولوا تذاكرهم إلى السفر بالباخرة، وأعيدوا لهم الفروقات.

رد المدير:....

- يمكننا منحهم تذاكر باخرة على حساب المكتب، لكن لا يمكننا إعادة الفروقات، لأنها مسجلة في نظام الحاسوب ولا يمكن التلاعب بها. سنخسرها من جيوبنا.

وافق سلام بعد أن استشارني، ثم أخبرنا المدير أن الباخرة ممتلئة، ولا توجد غرف شاغرة إلا على سطحها. فقلت لسلام إننا نستطيع تحمل ليلة واحدة على السطح بدل الانتظار أربعة أيام أخرى.

أمر المدير الموظفة بإصدار التذاكر، واستلمها سلام، ثم خرجنا من المكتب منتصرين، والفرحة تملأ وجوهنا. حتى

فريق سلام بدا أكثر فخرًا وسعادة منا. الفتيات يبتسمن، الشباب مبتهجون، وسلام يرفع يده ممسكًا بالتذاكر، ويصرخ "Yes!" وكأننا خرجنا من معركة منتصرين.

عندها ودعناهم شاكرين جهودهم الإنسانية، فقال لنا سلام:

- إن واجهتكم أي مشكلة، اتصلوا بي.

شكرناه، ثم ودعناه هو وفريقه. سلام ذلك الشاب من اصول عراقية وامه روسية وجنسيته دنماركية يعرف خمسة لغات جاءوا كمتبرعين لمساعدة اللاجئين في جزيرة متيليني اليونانية - 2015 ...

القَدَرْ

منذ أن تعينت في مدرستها الواقعة في قصبات ابوظبي، على بُعد أربعين كيلومترًا من مركز العاصمة، راودها حلم اقتناء سيارة خاصة بها. كانت أزمة المواصلات والتأخير اليومي تُرهقها، وتُثقل كاهلها بتوسلاتها المتكررة لزميلاتها اللواتي يمتلكن سياراتهن الخاصة، ويمننن عليها بخدمة التوصيل وكأنها عبءٌ ثقيل.

شعورها بالحرج من طلب المساعدة دفعها إلى تقليص مصاريفها، والاستعانة بزوجها لتفادي الإخلال بتوازن ميزانية البيت الشهرية. انخرطت في جمعيات مالية مع الزملاء والمقربين، واقتصرت على الضروريات، متخلية عن الكماليات كأدوات التجميل، وموديلات الفساتين، والحفلات، والسهرات. كل ذلك لتجمع المبلغ اللازم لشراء سيارة تُنقذها من نظرات زميلاتها المتعالية، وتمنحها استقلالًا طالما حلمت به.

بعد سنتين من التحدي والصبر، استطاعت أخيرًا شراء سيارة بسيطة، تيوتا حمراء تشبه الخنفساء، لتكون وسيلتها إلى المدرسة، ووسيلة استعادة كرامتها. احتفلت العائلة بها احتفالًا بسيطًا، ذُبحت فيه دجاجة قربانًا لدرء الحسد، ولُطخت عجلات السيارة بدمها، وزُينت بالورد والياسمين.

في أول جولة تجريبية، أخذت أطفالها وزوجها في نزهة بشوارع المدينة. كانت تقود بحذر، ملتزمة بإشارات المرور،

متجنبة الزحام، حريصة على ألا تُفسد فرحتها بغرامة أو حادث. وبينما الأطفال يصرخون "ماما أسرعي!" وزوجها يضحك ساخرًا من بطئها، كانت هي غارقة في تركيزها، لا تعيرهم اهتمامًا، منشغلة بالطريق، بالرادارات المخفية، وبكمائن الشرطة التي تُنصب بين الأشجار وعلى أعمدة الكهرباء.

كونها مبتدئة في القيادة، كانت تبذل جهدًا مضاعفًا لتفادي الأخطاء. ويُقال إن الشرطي الذي يُسجل مخالفة يحصل على 25% من قيمتها، مما يدفعهم للتشدد حتى مع الأبرياء.

وفي نهاية الجولة، وقبل الوصول إلى البيت، شاهدت كلبًا يعبر الطريق. توقفت على بُعد ثلاثة أمتار من خطوط العبور البيضاء لتفسح له المجال. خلفها توقفت سيارة أخرى، لكن خلفهما كان رجل بدين يقود دراجة نارية بسرعة جنونية، غير منتبه لما أمامه. فجأة انحرف بدراجته ليصطدم بسيارتها من الخلف، فارتفع في الهواء وسقط على مقعده على الزجاج الأمامي للعجلة، محطمًا إياه الزجاج ، ومُطعجًا غطاء السقف والمحرك.

صرخت العائلة في دهشة، وكأنهم تعرضوا لهجوم مباغت. أغمي على وداد من شدة الصدمة، بينما الرجل البدين يصرخ من ألم في عجيزته، يحاول سحب نفسه من فتحة الزجاج، ثم ينزل مترنحًا، ممسكًا ظهره، غير قادر على الوقوف.... نزلت وداد وزوجها يصرخان في وجهه: "من أنت؟ ألا ترى السيارة متوقفة؟ كيف لم تنتبه؟"

أجابهم بألم وحرج: "الأمر خارج عن إرادتي... كنت شارد الذهن، غارقًا في همٍّ ثقيل... ابنتي ضربها زوجها وهي فاقدة الوعي في المشفى، وأنا أعيش في دوامة من الحزن والألم، لا أدري لماذا ضربها وكيف انقذها"

كان ذهنه مشغولًا، تائهًا في لعنة الشرف والسمعة، فلم يرَ السيارة أمامه، ولم يشعر إلا بعد أن اصطدم بها.

وهكذا، كأنّ الكلب لم يكن إلا شيطان الحسد متجسدًا بجسد كلب، جاء ليُربك وداد ويُفسد عليها فرحتها. القدر الذي حاولت الهروب منه، اصطادها في لحظة غفلة. وكأنها كانت تلك السهام التي أطلقتها عيون زميلاتها، تبعتها في الطرقات دون أن تدري حتى أصابتها.

إذا عقد القضاء عليك أمرًا فليس يحله إلا القضاء

فما لك قد أقمت بدار ذل وأرض الله واسعة فضاء

الجوهرة

مـا إن لمحتهـا وهـي تجـري بـين أروقـة أسـواق الكاظميـة حتـى اقشـعر بـدني، وتبـددت عنـي كـل مظـاهر الاتـزان. بـدت لـي كشـعلة وضـاءة، تشـغل البـال والقلـب والجسـد بمفاتنهـا الآسـرة. وأنـا أترقـب خطواتهـا، شـعرت كـأن فتنتهـا أصـابت خـافقي بمـسٍ مـن جنـون، أو كـأنني أصـبت بمـسٍ مـن كـرب تلـك الجاذبيـة التـي تلبستها.

دخلـت السـوق كعصـفٍ هـائج، ضـرب شـواطئه علـى حـين غفلـة، فشـتّت مـن ذهنـي كـل الحمامـات التـي كنـت أتـأملهن. جـذبتني نحـو واقـع جاذبيتهـا المصـاغة بـالتلألؤ والسـطوع، رغـم احتشـامها بالحجاب والخمار الذي لفّ وجهها الجميل.

كانـت تخطـو بـاتزان، تهجـس بهـا كطـاووسٍ مبـتهج بكبريائـه، تتبختـر برهافـة وتناسـق، وترافقهـا ثقـة عاليـة بـالنفس. لـم تعـر اهتمامًـا لنظـرات العيـون المتلصصـة، تلـك التـي انشـدّت لقوامهـا الرشـيق. بـدت كفسـحة مـن الصـمت والبهـاء، تركبهـا طاقـة فياضـة مـن السـحر، وهـي تتنقـل بـين محـلات الصـاغة بأنـاة، تقودهـا رغبـة جامحـة وروح مشـتعلة، تبحـث عـن غايـة دفينـة فـي أعماقها.

وأنـا أراقبهـا مـن بعيـد، هجسـت بهـا تـدور فـي مخيلتـي كشـحنة مكهربـة، كإلكترونـات الـذرة، لا تنفـك عـن ذهنـي ولا أسـتطيع تجاوزهـا. لـم تسـتقر عنـد محـلٍ واحـد، وبـتُّ أتبعهـا كمجنـون

يسعى خلف عقله وقلبه، وهي تسعى خلف رغبة تسيطر على ذاتها وسحر مفاتنها.

كلما دخلت محلًا من محلات الذهب، زادت بهجة المكان وضياؤه وزحامه، كأنها بروحها الترفة تشاغل قلوب العشاق من حولها دون إرادة. شعرت برهافتها تمسّ حراشف الظن والعقل والفؤاد، دون أن أتمكن من وصفها أو تنبيهها لما فعلت بي من هيام.

أرهقت يقيني، شغلت بالي وأجهزة روحي العاطلة بلظى سحرها، لأبقى متيقظًا في مجال جاذبيتها. قررت أن أتبع فتنتها المتوهجة، وقد لازمتني حالة من الضعف والعناد تجاهها، تلك التي استفزت طاقة كل من حولها بعبثٍ ساحر. بدت كجوهرة نادرة تتلألأ بين الجواهر، فتبعها الفؤاد بشغف، وهي تجري كفيضٍ من البهاء بين أزقة السوق المزدحم.

تنقلت بين محلات الصاغة برهافة، يركبها العجب كنورٍ ساطع يضيء دربها، شاغلةً كل من حولها، أصابت العيون برمد الشغف والفضول، دون أن تمسّ كرامتها أو اتزانها.

كانت تجري بخفة الريح، ورواء رغبة جامحة تسيطر عليها. ما إن لفتت نظري، حتى نسيت سبب وجودي، وتركت من كنت أبحث عنها، ونسيت كل الصور التي كانت تدور في مخيلتي. أسرت هواجسي، سحرتني، فتتبعت ذلك الضوء المنفلت من ثلم فتنتها، والذي بات يرشدني إلى سر الجاذبية بشوقٍ ولهفة.

أضحيت كمجنون ليلى، أتبِع ملاكًا من وهم، ولا حلم لي إلا أن أكون مجنونًا بين يديها. هجست أن الجنون مرحلة من مراحل التسامي، يصل بها الفرد إلى صفاءٍ ونبلٍ في علاقته مع هدفه، يتقبل الحياة ببراءة، مبجّلًا محبوبته.

حينها شعرت أنني تحولت إلى هباب، إلى ضباب، إلى دخان، أعبر على عيون الناس وأفكارهم دون أن أمسّهم، متأملًا أن تشعر بغايتي، وددتها أن تفوز بها وتدرك مقصدي.

هكذا صرت أتبع الغاية الملظة في القلب دون تفكير، عسى أن أنفذ من ثلم الظن إلى عين تلك الفاتنة، لأستقر في حدقتها، فتُصاب بما أصبتُ به من مس يجعلها تتأمل الجنون في شخصي. جنح بي الخيال إلى نقطة اللاعودة، وأنا أتحرك كظلٍ خلفها دون وعي.

تبعت خطواتها في أزقة الصاغة الضيقة قرابة ساعة دون هوادة، تمكنت خلالها من سرقة ذاتي من عالمي، لأجعلها تنشغل بهدفٍ غير مراء، باحثًا في مواقع النجوم عن عطرها وأنفاسها وجاذبيتها، منشغلًا بها بذات الألق الظاهر عليها، متقدًا بشواظ سحرها طوال فترة وجودها في سوق الذهب.

حتى هجست بالرغبة النائمة في داخلي قد تحررت، مزقت شرنقتها، تسترت بظلال قيافتها، تشبثت ببروج فتنتها، بل صارت جزءًا من مقتنياتها وهي تبحث عن ذاتها بين اللآلئ والجواهر.

يـا تـرى، مـن تلـك الفاتنـة التـي أجبرتنـي علـى تتبعهـا؟ التـي أبرمـت خيـوط العقـد فـي فكـري بمغزلهـا؟ تلـك التـي مـن دون فتيـات السـوق قـرأت لوحـة إعلانـاتي، بـل مـن دون نسـاء بغـداد كلها نشرت عذاباتي في صحف العيون.

هكـذا سـحرتني، قيـدت تـأملاتي، ومـا إن مـرت بقربـي حتـى جعلتنـي أنشـده بمفاتنهـا، بـل أجبرتنـي علـى الافتتـان بكـل تفاصـيلها، مـن رأسـها حتـى أخمـص قـدميها. أشـعرتني بالشـك فـي قـدراتي وتقـديري للأمـور، فـلا أدري، أكانـت آيـة مـن آيـات الجمـال التـي أبـدعها الله كحوريـة، أم زلـة شـيطانية أشـعلت فتائـل الولـه والإعجـاب فـي مراكـز الـذهن والقلـب، لأُجبـر علـى وضـع قيدها في معصميّ؟

كانـت مغشـاة تمامًـا، مـن رأسـها حتـى قـدميها، ترتـدي جلبابًـا أسـود وخمـارًا مـن ذات اللـون، وقفـازات قطنيـة سـوداء تـرأف بأنامـل كفيهـا. رأيتهـا تتجـول بـين محـلات الصـاغة، تمعـن النظـر فـي الجـواهر مـن قلائـد وأسـاور ومحـابس وأقـراط بشـغف، تـتفحص الأحجـال، ترتـدي التـاج، وتجـرّب الزينـة علـى مفاتنهـا البضـة ومقاسـها، وكأنهـا لا تـدرك أن تلـك الجـواهر لا فتنـة فيهـا إلا مـا تسـرقه مـن فتنتهـا، ولا قيمـة لهـا إلا حـين تتـزين بهـا، حـين تتحلق في جيدها أو تلتف حول معصمها.

مـن خـلال ملاحظتـي لمـا رأتـه عينـاي داخـل السـوق المـزدحم، والـذي يضـم مـن النسـاء أضـعاف الرجـال، هجسـت بهـا غريبـة الأطـوار عـن كـل المتواجـدات، كأنهـا ليسـت مـن أهـل الحـي، ولا مـن سـكان بغـداد. لباسـها المحتشـم، رغـم غموضـه، يغشـاه ألـقٌ

بارز، وكأنها فصلت لنفسها مقاييس خاصة لتكون مميزة في البنية والقوام. فالمتميزون دائمًا ما يحيطون ذواتهم بهالة يعجز الآخرون عن تقليدها، لذا تجدهم محاطين بجمهرة من الإعجاب، دون أن يبدوا اهتمامًا ظاهرًا، وإن كان ذلك التجاهل يخفي نشوة داخلية تمنحهم بريقًا خاصًا ولمعة في الحدق.

هكذا هجست بها، وهكذا فرحت بها. تأملتها مليًا، تمنيتها رفيقةً، زوجةً، حبيبةً، سليلتي. أعجبني شياكتها، رشاقتها، وقوامها الفارع، رغم سلطان الحجاب الذي أخفى معالم وجهها وطراوة جسدها الممشوق.

هجست أن الحجاب لم يكن سوى ستار ظاهري، أشبه بكشافٍ سحري في مختبر الكيمياء، يبهج مفاتن الجسد بدل أن يخفيها. بدت لي معالم الأنوثة مثيرة بدقة غير متاحة، وكأن الحجاب لا يغطي سوى لون البشرة، ما يثير العقل، ويجعل المتأمل يتخيل ما تهوى النفس، حتى تستيقظ فيه نزعة الشوق والشبق الذي يتخيله في محبوبته.

لقد سمح الحجاب لمرافئ الفتنة بالبروز والتكور تحت غشاء العباءة، بشكل لافت للنظر. أظهر تقاسيم الجسد، وجعل رقائق الأنوثة تسطع تحت إنارة مصابيح السوق، وسوّر القوام الممشوق بجاذبية آسرة. بدا الجسد وكأنه هلامي، يتحرك بلا عظام، بنعومة وفتنة، كأنها حورية نزلت من السماء لتشغل بالي، وكأن الحجاب أشعل براكين الفتنة في جسدها، فأثارت

بهـا حفيظـة الجميـع، وهـي تنثـر شـواظ الجمـال فـي العيـون المبحلقة.

كنـت أهجس فـوق ذلـك الجسـد المرمـري، تتحـرك أمـواج الأنوثـة المبهرجـة بالجاذبيـة والخفـة والألـق. مضـت تختـال، والأنفـس الملظـة بهـا تتبـع وقـع سـهام الأنظـار المنصـبة علـى قوامهـا. كـأنني أصـبت بلهفـة شـيطانية، انحـدرت مـع تمـوج ذلـك الجسـد المتقـد مـن الـرأس حتـى القـدمين، فأشـعلت فـي النفـوس نـدبًا مـن الآهات والحسرات التي لم يعد الصدر يحتملها.

وأنـا فـي غيـي أتتبـع خطواتهـا، بـت أراقـب المشـهد بحـذر، وإن كنـت مقرونًـا بـه منـذ أول لحظـة. ذلـك الفيض حـلّ كقـدرٍ لا مفـر منـه، أضـحيت كقشـة تتلاعـب بهـا أمـواج متلاطمـة. كانـت تثيـر أعصـابي كلمـا لامـس القلـب شـطط مـن تلـك الأمـواج العاتيـة، ومـا عـاد يصـبر علـى صـخب المشـهد المـراق مـن تلـك الجميلـة. أضحيت أسير الهوى، لا أبغي تحررًا من واقع المشهد.

بدقاتـه المثيـرة، شـاطر القلـب حـدقات العـين، صـيغة إعجـاب وولـه، علـى وقـع عـزفٍ وغـنجٍ تأبطـه، متـأثرًا بتضـاريس الجسـد وهـي تتحـرك بخفـة وألـق بـين أروقـة السـوق. صـرت أتنقـل فـوق أحجـار الظـن، متـأملًا ذلـك الجسـد عبـر خيـالٍ لازمنـي وأطبـق علـى تفكيـري، أتنقـل بـين واقـع وخيـال، حتـى فقـدت اتزانـي، كـأنني أقـف علـى حافـة النهايـة، لا أبـالي بمـا يحـيط بـي مـن فـيض البشـر. غـدت الرحلـة متعبـة، وأنـا أبحـر عكـس تيـار الشـوق نحـو أعمـاق الرغبـة، تغـور بصـمت كـذوبان الـثلج، دون أن يُكشـف سرها.

وفي نظرتي إليها، هجست أنني أدركت مرامي، كأنها هي التي بحثت عنها طوال عزوبيتي، في قواميس الترجمة، وكتب المغامرات، والتاريخ، وأبجدية اللغة. كأنها من جرّت شبابي إلى واقع العجز، بعد أن تذيلتُ العقد الثالث من العمر.

مهما تكلمت، لا يمكن وصف مفاتنها. جسد مكور من ندف القطن، ينزوي خلف حاجز شفاف من غبار الغسق، وعباءتها ليست سوى مرآة تعكس ما بداخلها، زجاجٌ يسمح لفوتونات النظر والخيال أن تخترقه. صرت أنبجس بذلك الغراء، كشاهدٍ على لدانة الوجد، أرى مفاتنها تتلألأ، تبرق في عالم الخيال. حتى أنني، في معاينة معانيها، تخيلت ندب الوشم فوق صدرها كنقطة عنبر في صحن مرمر، والشامة على خدها كحبة هال فواحة، والصرة تترقرق في موج البطن، ترتع بضياء مشع كالبدر في سماء صافية.

هكذا انحدر بي الخيال إلى عالم الجنون والشبق. أيه يا هذا! أين ذهبت وأنت واقف بين الملأ، تراقب عن كثب ظبية بانَت بين شطط الغزلان، تحاول أن تفلت من شباك العيون المتلصصة، دون أن تستطيع، والوحوش يحيطونها من كل جهة.

بين جنوح ورغبة، صرت أتصور جسدها اللولبي بعقلي، أحفظه بسري، أصوغ له قصائد ود، أراه يتراقص أمامي كخيط دخان ينفذ من لظى وجدي، لا أستطيع الإمساك به ولا الابتعاد عنه. كأن الحجاب الذي يفصلني عنها من ورق شفاف، أهجس بخفقان قلبها، بقشعريرة جسدها تحت العباءة،

نتيجة العيون الماحقة خلفها. صرت أتحسس مكنوناتها، دقة تكور مفاتنها، والنار المضرمة فيها.

جسدٌ يميل مع سجدة الأنفاس المسكرة، يرتعش مع شهقة الآه في صدر المتيم، كضباب يمرق بين العيون الشاخصة، يضفي عطرًا من وله الشوق على الأنفاس المحيرة. أسمع صدحها كطائرٍ يعبر عالم الشبق والحبق، هائمًا بسرّه، يلهث خلف غايةٍ محبوسة، تواقًا للحرية.

مع ميلان الجسد الممشوق، باتت تميل أنفاسي، تشهق بسحر موج بحرها الطامي، تعزف بسر عزف أوتار خطواتها. لرهافة الإحساس، تنهدت الروح تنهد المكلوم، مضت خلفها تحبو على أثر الشوق والرغبة، تتشبث بطراوة روحها، بما ألتمس فيها من هيافة وفيض، كجواهر معلقة في شجرة الميلاد، تتلألأ في حدق العين بفيض الحسن الطاغي عليها.

بشيء من العناء، تمالكت نفسي أمام سهامها التي بعثرت وجدي، بذلك التناسق المبهر المكنون في ذوائب الجسد، فرضت قيدها في معصمي، أقحمتني في دوامة سحرها الظاهر. رأيت في برجها العالي لون الرضا يشع، كندى طافح فوق ظاهرها المترف، فاقتنعت بملاحقتها في أزقة السوق.

بعد أن أسرت هواجسي، تمنيتها زوجةً وحبيبة، فصيانة الشرف غاية أهواها، أتوق لها. فالإنسان إذا استقر ذهنيًا، سيعمر طويلًا، سيتفرغ لعمله، سيبدع، ستميل له الدنيا، وتغمره السعادة وراحة البال.

لقد شغلت بالي بتفاصيل أنوثتها وسحر ألقها، شدتني بلغز الفتن دون تخطيط، صرت أتبع خطواتها بشغف، كأنني ثور هائج يتبع ملاكًا طاهرًا دون شعور، دون أن تشعر بوجودي.

تبعتها كظلها في متاهات السوق، مارقًا بين شعب الأسواق المتداخلة ومحلات الصاغة، التي تشبه المتاهة لكثرة فروعها. كانت تتنقل من صائغ لآخر، ومن فرع لفرع، ومن رغبة لأمنية، دون كلل أو ملل. راقبتها بنهم، أتمعن بها عبر واجهات المحلات، في رغباتها، في حركاتها، في تفاصيلها، دون أن أجرؤ على الاقتراب منها. لم ألمس اهتمامًا منها بالعالم الخارجي، كأنها لا تبالي بالمحيط، لا تلتفت لتحرشات الآخرين، كأنها من صنف البكم والصم.

ما أن تدخل محل ما؛ حتى تشغل الموجودين بها، تلفت الانظار لشخصها، تجعل من المحل ورشة عمل لمتابعة طلباتها، وكأنَّ في طلتها سطوة تجعل من الحضور ينحني لرغباتها، وقد تكون ربما زبونة دائمة يعرفونها.

كنت أهجس بذاتي واحدا ممن يخضع لسطوتها دون إرادة وأن كنت اراقبها دون الاحتكاك بها، لذا جعلت نفسي أنشغل بأمر ثانوي في المفازة الخارجية أمام المحل، وكأني أوحي بها لغيري بأني مكترث بأمر خاص يخصني ليس له علاقة بما يحيطني، بحيث صرت أمضي أمام المحل الذي تدخل فيه جيئة ورواحة في ذات الشارع المزدحم المكتظ بالبشر وبالذات النساء منهم حتى تفرغ من تبضعها. ربما كنت عرضة للهمز واللمز والهزر والقبح والنميمة دون أن أعلم،

وربما غير ذلك من الأمور كاللوم والسفه، كوني شاب في عمر تجاوز حد المراهقة...

هكذا خيل إليَّ ومع ذلك لم تهزني شارة كي أغير من خط سلوكي، لأني من لحظة مشاهدتها افتقدت علاقتي بالعالم الخارجي، بقي فكري مرتبط بهيكلها والأنوثة التي ترفقها. بقرارة نفسي كنت أشعر بأني مراقب من قبل الجميع، من المارة وأصحاب الدكاكين ورجال الامن والمعنيين والمراهقين والسذج وأصحاب الشهامة، لذا بت أمتعض من شذوذ سلوكي وتصرفاتي المهينة دون أن أغير شيء منها، كنت أهجس بالقيد في معصمي وما أني سوى سجين هواها..

حقا كانت تصرفات غريبة تلك التي عنيت بها، ولا أعلم ما الذي كان يسوقني ويدفعني خلفها، ربما لأني أشعر بذاتي قد قطعت مشوارا طويلا من العزوبية فوصلت حدا لا تحتمل خطوات أخرى إضافية، ربما صار العمر يحرجني، يشمت بكسلي وسلوكي، يلوي خجلي وتقهقري، يحاسبني على انزوائي وطول صمتي، يعاقبني على برودي وخنوعي وخذلاني، ربما...

في ذلك الوقت كنت أشعر بالألم يحز الفؤاد حين أردد كلام المطرب ياس خضر مع نفسي وهو يقول في أغنية روحي "عمر وتعدى الثلاثين لا يفلان"، كأنه أهجس به يتقصدني بأغنيته، لذا وددت أن أنهي مشوار العزوبية قبل أن يأتي الثلاثين القابع على محراب العمر...

فـي سـوق الكاظميـة، حيـث الزحـام يبتلـع الملامـح، لا أحـد يكتـرث بوجـودي. تمـر موجـات البشـر أمـامي كـأنهم سـيل لا يعـرف التوقـف، وجـوه تتبـدل فـي كـل لحظـة، فـلا أسـتطيع حفـظ ملامحهـا، ولا أحـد يسـأل عـن الآخـر أو يلتفـت إليـه. المنطقـة، بموقعهـا الجغرافـي وسـط بغـداد، أشـبه بسـوق مفتـوح لكـل مـن يرومه، يعجّ كل يوم بكمٍ هائلٍ من الناس الزاحفين.

وسـط هـذا الـزخم، بـاغتتني غيمـة مـاطرة، تخطـت حـواجز الظـن والمشـاعر، وأبرمـت ضـفائر العشـق فـي كنفـي بـزخم زخاتهـا. كأنهـا أمطـرت علـى رواق فكـري فضـة وذهبًـا، فأصـابت مقتلـي. بسـحر مفاتنهـا وطيـب حسـنها، بللـت مرافـئ الـود المتيبسـة علـى ثغـري، وأعـادت لـذاكرتي كلمـات الشـغف التـي افتقـدت بريقهـا منـذ زمـن. فتحـت للقلـب سـبل الحـب، وأيقظتنـي مـن واقـع منفلـت، وأنـا مكبـل بـالهم، أسـيرٌ لعجـزي وضـعف علاقـاتي وقـدراتي المادية، أهيم في دوامة العناء دون أن أستبيح فضاء الأحلام.

جعلتنـي أتحـرك مـن موضـعي، تتلاعـب بضـفائر صـبري وهواجسـي، ألـوذ كالعصـافير فـي وحـل غواهـا، فراشـة تسـتكين علـى زهرتهـا، متـأملاً أن يـرقّ حسـنها، وأن يتقد لظـى الوجـد فـي هواهـا. جابـت السـوق قرابـة سـاعة، طافـت بمحـلات الصـاغة، وأنـا أراقبهـا بشـوق لا يمـل، ونهـم لا يكـل، أججـت نـواميس صـمتي باسـتبداد وقعهـا. شـعرت أنـي مسـافر فـي متحـف الفـتن، أهجـس بجسـدها الرخـامي كجسـد آلهـة سـومرية، وملكـات بابليـة، وثـديها اسـتلته مـن عشـتار، وعجيزهـا يـرقّ بعجيـز تويـا، ونورهـا

انعكاس من بلقيس، وقامتها من قامة فينوس. كل تلك الفتن تجمعت فيها، فبدت لي حورية من حواري الجنة.

لم يظهر من وجهها سوى عينين فيروزيتين، لكنهما توحيان بأن خلف الخمار يختفي قمر لم يولد بعد. تمشي بهالة ظل من الجاذبية، توحي بجبروت فتنة مدفونة في حجابها، يعجز الوصف عن فكّ عقدها.

الكرامة هي قيافة الإنسان، فإن فرّط بها، فقد ذاته. وأنا، في مراقبتي لها، كنت أبحث بين ثنايا الحجاب عن السحر الغافي، عن كرامة تقيم الذات، عن هدوء البال، عن غيرتي وصفاتي، عن حقيقة وجودي في عالم الحس. تعلقت بها من أجل صيانة الكرامة التي أبحث عنها، ومن أجل الاستقرار الذي أبتغيه لنفسي المضطربة.

قدّرت حشمتها، لباسها، قرارها، وبأسها الذي أصابني بهوس انسيابي نحو أعماق الرؤى. رغم خجلي، سار الهوس في أزقة القلب، أجج الحب وهيّج الأعصاب، مرغ كبريائي في وحل الهزيمة، دون أن أستطيع فعل شيء. هجست بالحالة كأزمة فشل أخرى، دون أن أصل لشاطئ الأمان.

ظهورها كان كقنبلة انفجرت دون إنذار، شظاياها أصابت منابت الإعجاب في عقلي وقلبي. أرهقتني، نزف الإعجاب من كل صوب، ارتعشت بحضرة الرغبة دون أن أبحث عنها، دون أن أجد في الذاكرة صورًا تترجم هيافتي. كأنها خُلقت من واقع الصدفة قدرًا لي، فعتتني كحجر في وسطه.

كانت سليطة بكل ما للكلمة من معنى، لم تترك لي فرصة للبحث عن ذاتي، ببروزها المتألق والمتأنق، سقطت أفكاري، وأقرت أمر عذابي. حضرت كقدر لا مفر منه.

ما ألهم خيالي وقادني لتتبعها هو عنفوان طلتها، التي أوصدت كل الأبواب إلا باب عذابي. رأيت في حجابها أناقة مدفونة، وفي شبابها تعففًا مسترخيًا، وكأنها جاءت من كوكب آخر لتحرك مشاعري الراكدة.

جلدتني بصمت، جرّتني لوهدة التفكير بها، دخلت فكري بسرعة، نثت عبق رحيقها فوق كنفي، أغشت فؤادي بالشوق، حتى وجدت نفسي أسيرًا لهواها. حاولت أن أسرّ لها هواني، لكنني لم أفلح، ولم أبح بذلك علنًا.

وأنا أتبعها، هجست بأنها قرأت طالع فنجاني، فأوقدت شعلة الرغبة والعذاب، غرزت الغموض والعناد في صمتي، كحلت عيني برمد الشوق، فلم أستطع التنصل من ذاك القدر.

ما شدّني إليها أنها كاملة الأوصاف، كأنها إحدى راهبات الدير في بهائها ووقارها. ينساب السحر من خمارها كما ينساب عبير العطر من ثنايا جسدها، وقامتها الممشوقة تستقيم وتدهش كعود الخيزران، يزورها الشوق في كل التفاتة، ويغمرها السحر في كل حركة، وهي تمشي برقة النسيم بين أزقة أسواق الكاظمية، بخطوات هادئة كأنها لا تريد أن تثير غبار الطريق خلفها، فتجذب الأنظار كما تفعل الجواهر البراقة.

بدت لي بجسد متناسق، لا هو ممتلئ ولا نحيل، لا طويل نافذ ولا قصير مدغم. تتجلى الفتنة في مواضعها كفاكهة ناضجة، وتتلألأ في مواطن الإثارة كالنجوم، حيث تبرز تقاسيم الجسد تحت العباءة المنكمشة، فتشع الفتنة من الداخل، وتفيض بالسحر لتثير ما وراء الحجاب.

بقيت نفسي تراوغ ذاتي، ألاحق خطواتها بنهم العاشق، أبحث عن فرصة تلامسها، أملاً في أن أثير انتباهها أو مشاعرها بشرارة من مشاعري المتقدة، أن أشد وثاقها بوثاقي إلى الأبد.

لكنها كانت لا تبالي بمحيطها، تمضي في وادٍ سحيق وأنا في وادٍ آخر. لا تلتفت إلى عيون الذئاب التي تلاحقها، ولا تعير اهتمامًا لعبارات الإعجاب، ماضية بهدوء ورزانة نحو هدفها، كسمكة تنسل من بين أفواه الحيتان دون أن تعبأ بها، كأنها آلة مبرمجة بتعاليم صارمة.

كنت أراقبها وهي تمضي، تتطاير خلفها الأنفاس كقصاصات الورق، لا تعيقها وهدة ولا هوة، تتخطى كل العقبات بخطوات ثابتة.

وحين فرغت من التبضع، أخذت حاجتها وانسلت برشاقة من بين الجموع، حتى بدا عبيرها ينساب خلف قدّها الرشيق، ومضت نحو الشارع العام، حيث كانت عجلة فارهة بيضاء من نوع مرسيدس تنتظرها. كان خلف المقود شاب وسيم، تبدو عليه علامات الرضا والغنى، بثوب أبيض ناصع، وجهه

متورد كمن لامسته لفحة شمس، بدا لي كأنه زوجها أو أخوها أو قريب لها.

ما أقلقني هو أنه لم يرافقها أثناء التبضع، فبتُّ أتساءل: لماذا تركها وحدها وسط الزحام؟ هل كان يخشى أن يراه أحد معارفه؟ هل كان يتجنب أن تلتقطه أعين المراقبة؟ هل خاف على سمعته من أن يُذكر اسمه في مجالس النميمة؟

لكنني، من باب الرأفة، عذرته. ربما كان الزحام شديدًا، ولا توجد مواقف قريبة للسيارات، وربما دخولها السوق لم يكن مخططًا له. والنساء، كما يُقال، إذا دخلن السوق لا يخرجن إلا وقد أنفقن ما في خزائنهن، فأسواق النساء عامرة بالبضائع، وأسعارها تفوق أسعار الرجال.

وربما أرادت أن تختار حاجتها بنفسها، دون تدخل منه، فذوق النساء يختلف عن ذوق الرجال، خاصة في ما يتعلق بالبضائع النسائية. فتركها على سجيتها كي لا يُلام لاحقًا، كما يفعل كثير من الأزواج الذين يرافقون زوجاتهم ثم يُعاد التبضع مرة أخرى.

حين ركبت السيارة، تأججت في داخلي مشاعر غريبة، شعرت بتأوهات لم أختبرها من قبل، وبتُّ ألوم حظي الذي لا يستقر على حجر، كأن القدر قد عصاني في دروب المتاهة.

في تلك اللحظة، أجهشت على الفكرة التي تخلقت في تأملاتي، والتي أراقت مشاعري خلف خيال ظل يدور في أروقة الساحة. ومع انزوائها، انفثت الآهات والحسرات خلف تلك

العجلة الزاحفة، هجست بنار تطرق مخابئ الفؤاد، كأن دخانها الملفوظ هو حسرات خلف طيفها الزاوي.

أسندت جسدي إلى جدار أحد المحلات، وتركت عيني تنزف نظرها خلف تلك السيارة، تمخر الطريق وتختزل المسافات في غورها الأخير.

برحيلها، طويتُ سجل شعوذتي اللحظية وجنوني العابر، الذي انتفض في لحظة غفلة. لم أصدق أن نفسي المراهقة قد تخلت عن رزانتها وأخلاقيتها، وتركت البراءة الكتومة جانبًا.

لم أكن أعلم أن في داخلي طفولة ومراهقة ملثمة بالإغواء واللهفة، وأنني أمتلك طاقة كامنة من الحب لم أكتشفها من قبل. شكرت تلك المحجبة التي أيقظت في داخلي مراهقتي من جديد.

جميل أن يعيش الإنسان لحظات جنون عابرة، لحظات تحفز الذاكرة، وتترك أثرًا في النفس، خاصة في الأوقات الحرجة من السلوك. لقد حضرت دون تخطيط، كشعلة ود أنارت أروقتي المظلمة، وأيقظت فيّ ما لم أكن أدركه من قبل. لذا، بقي تأثيرها يدور في فلكي، وأصبحت أمني النفس أن أراها مرة أخرى.

همسات شريط الاختبار

في صباحٍ هادئ، وبين جدران غرفةٍ غمرها السكون، جلست تتأمل شريط الاختبار بين يديها. لم يكن مجرد قطعة بلاستيكية، بل نافذة إلى عالمٍ جديد، عالمٍ كانت تترقبه بشغفٍ وخوفٍ وحنين. ما إن ظهرت غمقة اللون حتى ارتجف قلبها، وضعت يدها على بطنها، وكأنها تتحسس نبضًا خفيًا، حياةً تتشكل في رحمها.

صاحت بوحدتها: "شكرًا يا الله..."، وكأن النداء ارتد إليها همسةً دافئة، صوتًا طفوليًا يقول:...

- "لا تقلقي يا ماما، أنا بخير... أحبك يا ماما."

شهقت، ارتعشت، وابتسمت. "ها حبيبي... أنت تسمعني؟ أنت معي؟ هجست بك تناديني، ها أنا قربك."

تأملت الشريط مرة أخرى، ثم ثالثة، ثم رابعة... وفي كل مرة، كانت تشعر أن الطيف يخرج منها، يلاعبها، يهمس لها، يطمئنها...

- "ما بكِ يا ماما؟ كأنكِ لم تسمعي همساتي؟ أنا قادم، اعتني بنفسك واعتني بي، كي تكتمل أعضائي وتقوى عضلاتي وعظامي..."

أجابت وهي تبتسم والدموع تلمع في عينيها: "سوف أفعل... أهلاً وسهلاً بك يا حبيبي، أنا بشوق لرؤياك، سأبذل قصارى جهدي لتعيش."

كان الطيف يحوم حولها، وجهه كالدخان، ملامحه تختنق في ضباب الفكرة، لكنها تشعر به، تراه بقلبها، تسمعه بروحها. كلما حاولت الإمساك بالصورة، تلاشت، لكنها لم تيأس.

- يا ماما "لا زلت في طور التكوين، دون ملامح واضحة سأزورك بين الحين والآخر..." همس لها.

وفي لحظةٍ خاطفة، شعرت به كطائرٍ يحلق في أروقة ذهنها، يرفرف بجناحيه، يملأها دفئًا وأملًا. لم يكن حلمًا، بل بداية حياة، بداية أمومة، بداية قصة حب لا تنتهي.

أمينة

فـي قريـة صـغيرة تحـيط بهـا الجبـال، كانـت تعـيش امـرأة مسـنّة تُـدعى أمينـة، تقضـي أيامهـا فـي غرفـة تطـل علـى نافـذة وحيـدة. كانـت تلـك النافـذة تطـل علـى شـجرة زيتـون قديمـة، وعلـى الـرغم من بساطتها، كانت أمينة ترى فيها العالم كله.

فـي كـل صـباح، كانـت تفـتح النافـذة وتخاطـب الشـجرة: "صـباح الخير يا صديقتي، هل من جديد؟"

ومـع مـرور الأيـام، بـدأت أمينـة تلاحـظ أن أحـد أغصـان الشـجرة يتحـرك بطريقـة غريبـة، وكـأن أحـدهم يعلّـق عليـه شـيئًا. وفـي أحـد الأيـام، وجـدت رسـالة صـغيرة معلقـة علـى الغصـن، مكتـوب فيهـا: "شـكراً لأنـك تـذكرينني أن الحيـاة لا تـزال جميلـة، حتـى مـن خلف نافذة."

تكـررت الرسـائل، وكـل واحـدة كانـت تحمـل كلمـات دافئـة مـن مجهـول. بـدأت أمينـة تـرد عليهـا، وتعلـق رسـائلها علـى الغصـن نفسـه. لـم تكـن تعـرف مـن يكتـب لهـا، لكنهـا شـعرت أن قلبهـا ينبض من جديد.

وفـي يـوم ربيعـي، طرقـت البـاب فتـاة صـغيرة، تحمـل باقـة مـن الزهـور، وقالـت: "أنـا مـن كـان يكتـب لـك، جـدتي كانـت تقـول إنـك كنتِ معلمتها الوحيدة التي آمنت بها."

دمعــت عينــا أمينــة، وابتســمت وهــي تقــول: "النافــذة كانــت صغيرة، لكنّها فتحت لي أبوابًا كثيرة."

الدكتورة بان

في مدينةٍ تتنفس الغبار وتختنق بالوعود، كانت الطبيبة "بان" تعرف أن الحقيقة لا تُقال بسهولة، خاصة حين تكون الحقيقة سكيناً في يد من لا يخاف الطعن.

بان، طبيبة شابة، ذكية، لا تخشى المواجهة. كانت تعمل في مستشفى حكومي، حيث الصمت أكثر انتشاراً من الأدوية، وحيث الملفات تُغلق قبل أن تُفتح. ذات يوم، اكتشفت أن زميلتها "ساره" لم تمت كما قيل، بل كانت ضحية جريمة غامضة، طُمست تحت عنوان "انهيار نفسي".

لكن بان لم تكن ممن يرضون بالقصص الجاهزة. بدأت تبحث، تسأل، تربط الخيوط. وكلما اقتربت من الحقيقة، شعرت أن العيون تراقبها، وأن الأبواب تُغلق خلفها بصوتٍ أعلى من المعتاد.

في إحدى الليالي، تلقت رسالة مجهولة: "توقفي، أو ستكونين التالية." لكنها لم تتوقف.

وفي ليلة دهمة ثم اختطافها واغتصابها وقتلها من قبل عصابة تتحكم بالمدينة، صورت جثتها في شقتها مسجات بدمائها ثم على حين غفلة اختفت الجثة..... لطهارتها قالوا البسطاء والسذج أنها رفعت إلى السماء، وقال المجرمون تم حرقها لتختفي جريمة الاغتصاب. ثم قيل إنها انتحرت لشعورها بكآبة نفسية....

لكن من عرفها، من سمع صوتها وهي تقول "لن أسكت ولن أطاوع المجرمين ولو قتلوني"، لن يصدق بادعاءات المجرمين الخونة.

مرت الأيام، وامتلأت الجدران بصورها، وامتلأت القلوب بأسئلتها. من قتل بان؟ ولماذا؟ وهل الحقيقة تستحق الموت؟ حتى أصبحت رأي عام محلي وعربي ودولي.

في المدينة التي تخاف النور، كانت عين بان تدرك الحقيقة، ولم تُغلق إلا بعد أن تركت خلفها سؤالاً سيبقى ماثلا في فكر كل شريف.

من يأخذ بثأري؟ يا ترى : كيف المجرم يموت؟

النهاية

للكاتب عشرات الكتب بين رواية ومجموعات قصصية

المجموعات القصصية:-

1- فرصة هدف
2- عصير الرمان
3- لغة العود والحجر
4- زيارة طبيب
5- كرستال

مجموعة الروايات:-

1- لغز اللؤلؤة
2- فتاة الكاظمية
3- جنوح النفس
4- عبير
5- شذرة من العقد
6- طريق الجحيم
7- غراب البين
8- عقاب الذات
9- الاقدام المتكسرة
10- عواصف الجنين
11- الفراغ
12- القمة

لوحة تعبيرية جسدت حالة الفتاة وهي تشقى في تجاوز محنة الرزق وجمود الحياة بإصرار، بذا كأنه شكل مقارنة وهمية بين عمرها الفتي وقسوة الظرف.. إلى جانب إصرار الفتاة أوضح زحف أمل يوازي طموحاتها، حلم تراه مغروس في الطبيعة كمقاومة الشجر ذاك الظرف، والجربوع الذي يزحف بخطاها خلف البنت، كانه يتبع حيويتها التي فرضتها على الطبيعة في تلك البؤرة المنعزلة. كأنه غرَّ بفتنة الحياة وجسد تلك الفاتنة..

كان الرسام قد أصرَّ إلى إبراز مواضع الفتن، ليدهش الناظر بقوة بصيرته، وضع اللغز في صرة الهدف، جعل المشاهد يغور في الفكرة التي تجتمع عليها الأفكار الاخرى، ليرتقي بالمشهد إلى البلاغة، ود جعل المشاهد عنصرا من عناصر اللوحة، ليتجاوز الفكرة بالمغازلة الحية.